المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف

الدكتور جواد علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء التاسع

الفصل الستون بعد المئة

الشعراء الصعاليك

قال صاحب (اللسان) : « الصعلوك : الفقير الذي لا مال له ، زاد الأزهري : ولا اعتماد . وقد تصعلك الرجل اذا كان كذلك ، قال حاتم طيء :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى فكلاً سقاناه ، بكأسيها الدهرُ
فما زادنا بغياً على ذي قرابة غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر »[1]

« والتصعلك : الفقر . وصعاليك العرب : ذؤبانها . وكان عروة بن الورد يسمى : عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه »[2]، وقيل : الصعلوك : الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات »[3] . والصعاليك ، قوم خرجوا على طاعة بيوتهم وعشائرهم وقبائلهم ، لأسباب عديدة ، منها عدم إدراك أهلهم أو قبيلتهم نفسياتهم ، مما سبب الى نفورهم منهم ، وخروجهم على طاعة مجتمعهم ، وهروبهم منه ، والعيش عيشة الذؤبان ، معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن حياتهم ، وعلى قوتهم في تحصيل ما يعتاشون به ، بالإغارة على الطرق والمسالك ، وبمهاجمة أحياء العرب المبعثرة ، أفراداً أو طوائف . وهم أبداً في خوف من متعقب يتعقبهم ، لاسترداد ما أخذ أو سلب ، ومن متربص يتربص

---

١ اللسان (١٠/٤٥٥ وما بعدها) ، (صعلك) ، (صادر) .
٢ اللسان (١٠/٤٥٦) ، (صعلك) ، تاج العروس (٧/١٥٣) ، (صعلك) .
٣ جمهرة أشعار العرب (١١٥) .

بهم الدوائر ، ليأخذ منهم ما غنموه بالقوة من غيرهم أو ما قد يجده في أيديهم. ولهذا كانوا يتكتلون أحياناً ، بانضمام بعضهم الى بعض ، مكونـين جماعات ، جمعت بينها وحدة الهدف ، وغريزة حماية النفس ، والمصلحة المشتركة ، بعد أن حرمهم أهلهم ومجتمعهم من تقديم أية مساعدة أو حماية لهم ، وسحب منهم حق الأخذ بالثأر والانتقام ممن قد يعتدي عليهم ، بحق (العصبية) ، وبعد أن جعل دمهم هدراً ، وتبرأ منهم ومن كل جريرة يرتكبونها ، فلا يطالب أهلهم بدمهم، ولا يطالبونهم بأي دم قد يسفحه الصعلوك .

ولا استبعد أن تكون للمغامرة ولاثبات الشخصية ، دخـل أيضاً في حدوث الصعلكة وفي تمرد الشباب على مجتمعهم ، على غرار ما نجده اليوم من تمرد على مجتمعاتهم ، لإثبـات وجودهم وشخصيتهم في هذه المجتمعات ، بطريقة العبث بالعرف والعادات وبعدم المبالاة لأوامر العائلة والمجتمع ، مما يجعلهم يسيرون سيرة الصعاليك في ذلك الوقت ، فلو نظرنا الى حالة الصعاليك نجد أن منهم من كان من أسرة متمكنة أو لا بأس بأحوالها المالية ، ومع ذلك عاش صعلوكاً ، لما وجد فيها من مغامرات ومجازفات ومطاردة وهجوم ودفاع . فحب المغامرة ، وإثبـات الشخصية ، من أسباب الصعلكة في الجاهلية كذلك .

والصعاليك بعد ، حاقدون على مجتمعهم، متمردون عليه ، للأسباب المذكورة، نبتت في أكثرهم عقد نفسية ، تكونت عندهم من سوء معاملة المجتمع لهم، ومن سوء فعلهم وتصرفهم الخاطىء تجاه مجتمعهم ، فهم حاقدون لا يبالون مـن شيء ولو كان ذلك سلباً ونهبـاً وقتل أبناء قبيلتهم وعشيرتهم ، لأنهم خلعوا منها ، وحرموا من حق الدم ، فكان خلعها لهم سبب شقائهم وبؤس حياتهم ، فأي حق بقي إذن يمنعهم من الحقـد على القبيلة ومن مهاجمة العشيرة ؟ ثم إنهم حاقدون على مجتمعهم ، لأن منهم فقراء معدمين ، لا شيء عندهم يعتاشون عليه ، ولا ملابس لديهم تقيهم من الحر أو البرد أو المطر ، وكل مـا تقع أعينهم عليه ، هو مفيد لهم نافع ، ومن حقهم بحكم فقرهم انتزاعه من مالكه ، وإن كان مالكه فقيراً معدماً مثلهم ، لأن النفس مقدمة على الغير ، وهم يعيبون الخامل منهم ، الذي يعيش صعلوكاً ذليلاً قانعاً بما كتب عليه من الذل والتشرد ، عائشاً عـلى صدقات الناس ،ويرون الخلاص من هذا الذل بالحصول على المال بالقنا وبالسيف، فمن استعمل سيفه نال ما يريد ، لا يبالي فيمن سيقع السيف عليه ، وإلا عـدّ

من (العيال) . قال (السليك) :

فلا تصلي بصعلوك نئوم إذا أمسى يُعد من العيالِ
ولكن كل صعلوك ضروبٍ بنصل السيفِ هامات الرجالِ[1]

« ولذلك كان صعاليك العرب ولصوصهم وأرباب الغارة منهم يرون أن ما يحوونه من النعم بالغارة ، وينالونه بالسرق والسلة ، إنما ذلك مال منعت منه الحقوق ، ودفع عنه بالبخل والعقوق ، فأرسلهم الله اليه وسببه لهم رزقهم إياه، كما قال عروة الصعاليك :

لعلّ انطلاقي في البلاد وعزمتي وشدّي حيازيم المطيّة بالرحل
سيدفعني يوماً الى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل »[2]

« وكما ان فيهم من يتمدح ببذل القرى ومعاناة الطوى ، وتحمل الكلفة ومواساة ذوي الخلة ، فكذلك فيهم البخيل الجامع ، واللئيم الراضع ، ومن يؤثر التفرد بناره والاستئثار بزاده دون ضيفه وجاره . وينشد لبعضهم :

أعددت للأضياف كلباً ضارياً عندي وفضل هراوة من أرزن

وقال الآخر :

وإني لأجفو الضيف من غير بغضة مخافة أن يغري بنا فيعود

وقال الأصمعي : مرّ ابن حمامة بالحطيئة ، فقال : السلام عليك . قال : قلت ما لا ينكر . قال : إني أردت الظل . قال : دونك ، والجبل حتى يفيء عليك . قال : اني خرجت من عند أهلي بغير زادٍ . قال ما ضمنت لأهلك قراك . قال : اني ابن حمامة . قال : كن ابن نعامّة . فمضى عنه آيساً .

قال : وخرج الحطيئة يوماً من خبائه وبيده عصا ، فقال له رجل: ما هذه؟ قال : عجراء من سلم . قال : اني ضيف . قال : للضيف أعددتّها »[3] .

---

1 الشعراء الصعاليك (٢٣٥) .
2 الجمان في تشبيهات القرآن (٢٦٢ وما بعدها) .
3 الجمان في تشبيهات القرآن (٢٦٠ وما بعدها) .

والحطيئة من الملحفين في السؤال المستجدين الذين لا يخجلون من الاستجداء . فكان يلح في شعره بالطلب ، ويحاول بكل الطرق جمع المال ، حتى أهان نفسه، ولم يترك رجلاً معروفاً إلا ذهب اليه يسأله أن يعطيه مما عنده . فلما عيّن (عمر) (علقمة بن علاثة) على حوران ، قصده (الحطيئة) ، فوجده قد مات ، فقال :

وما كان بيني لو لقيتك سالماً وبين الغنى إلا ليال قلائل[1]

فأعطاه ولده مائة ناقة مع أولادها .

وقد عاب (الأعشى) (علقمة بن علاثه) ، بقوله :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[2]

وقد وجد الصعاليك في الأغنياء البخلاء ، هدفاً صالحاً لهم . فهؤلاء أصحاب مال ، وهم أصحاب جوع ، ولا بـد للجوعان من أن يعيش ، فلم يجدوا في مباغتة الأغنياء أي حرج يمنعهم من السطو على أموالهم ، لأنها زائـدة عليهم ، وهم في حاجة إليها ، وبذلك يضمنون لأنفسهم ولاخوانهم الجياع الصعاليك أسباب الحياة ، فالحاجة عندهم تبرر الواسطة، وإذا امتنع إنسان على صعلوك وأبى تسليم ما عنده اليه ، فهو لا يبالي من قتلـه ، فالقتل ليس بشيء في نظره ، منظره مألوف ، والفقر ذاته قتـل للإنسان ، بل أشد فتكاً به من القتـل ، والصعلوك نفسه لا يدري متى يقتل ، فلا عجب إذا ما رأى القتل وكأنه شربة ماء .

وكان (أبو عبيدة) ، لا يستأنس بسماع شعر الصعاليك ، لأنهم فقراء ، قال (أبو حاتم) : « جئت أبا عبيدة يوماً ، ومعي شعر عروة بن الورد ، فقال : فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير »[3] ، فهو من المحبين للأغنياء ، وما الذي يجنيه من الفقراء ! وكان (أبو مالك عمرو بن كركرة) البصري ، مثل (أبي عبيدة) في الابتعاد عن الفقراء ، بل كان أشد منه تعصباً عليهم ،

---

١ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٨٨) .
٢ الجمان في تشبيهات القرآن (٢٥٩) .
٣ أمالي المرتضى (٦٣٨/١) .

« قال الجاحظ : كان أحد الطياب ، يزعم أن الأغنياء عند الله أكرم من الفقراء. ويقول إن فرعون عند الله أكرم من موسى »[1] . و (ابن كركرة) أعرابي ، وكان مرجع الأعراب الوافدين الى البصرة ، وقد تحدث عنه (الجاحظ) في كتبه .

وقد عرف الصعاليك بـ (الذؤبان) وبـ (ذؤبان العرب) ، « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم وشطارهم الذين يتلصصون ويتصعلكون ، لأنهم كالذئاب »[2]. وعرفوا باللصوص لأنهم كانوا يتلصصون . واللص السارق ، في لغة طيء[3] ، وقيل لهم : (الشطّار) . « والشاطر من أعيى أهله ومؤدبه خبثاً ومكراً ، جمعه الشطار كرمّان . وهو مأخوذ من شطر عنهم ، اذا نزح مراغماً . وقد قيل انه مولد »[4] . وعرفوا بـ (الخلعاء) ، والخليع الشاطر ، « وهو مجاز سمي به ، لأنه خلعته عشيرته وتبرأوا منه ، أو لأنه خلع رسنه . ويقال : خلع من الدين والحياء»[5]. « وكان في الجاهلية اذا قال قائل منادياً في الموسم : يا أيها الناس ! هذا ابني قد خلعته ، وذلك اذا خاف منه خبثاً أو خيانة ، أو من هو بسبيل منه، فيقولون: إنا قد خلعنا فلاناً ، أي فإن جر لم أضمن ، وإن جر اليه لم أطلب. يريد تبرأت منه . وكان لا يؤخذ بعد بجريرته وهو خليع »[6] . و (الخلعاء) جماعتهم « واختلعوه اذا ذهبوا بماله »[7] . ولعل لهذا التفسير صلة بالصعلكة التي تعني الفقر، فالفقر والإملاق والجوع من أهم الملازمات التي لازمت ورافقت الصعاليك، وفي هذا المعنى أيضاً ما جاء في كتب اللغة : « وشفر المال تشفيراً : قلّ وذهب »[8]، ولعل للفظة (الشنفرى) ، صلة بهذا المعنى ، وقد تكون للفظة (الرجل) التي تعني البؤس والفقر[9] ، صلة بهذا المعنى كذلك . فقد عرف الصعاليك بـ (الرجليين)

---

١ الفهرست (٧٢) .

٢ تاج العروس (٢٤٨/١) ، (ذأب) ، الخزانة (٥٣٢/٣) .

٣ تاج العروس (٤٣٢/٤) ، (لص) .

٤ تاج العروس (٢٩٩/٣) ، (شطر) .

٥ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) .

٦ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) .

٧ تاج العروس (٣٢٢/٥) ، (خلع) .

٨ تاج العروس (٣٠٨/٣) ، (شفر) .

٩ تاج العروس (٣٣٨/٧) ، (رجل) .

وبـ (الرجيلاء) ، وعرف الواحد منهم بـ (الرجليّ)[1] ، وقد تكون للفظة (الخلع) صلة بالفقر والإملاق كذلك ، بدليل ما ذكروه في تفسير (المعيل) من قولهم : « المعيل : الذي قصر ماله وعليه عيال »[2] . وقد عرف الصعاليك بـ (الرجليين) لاستعمالهم أرجلهم في الإقدام والهروب ، لأنهم فقراء لا يملكون غير أرجلهم تحملهم الى المواضع التي يريدون سرقتها ، إذ لا خيل لهم يركبونها لعجز أكثرهم عن شرائها ، فلا يكون أمامهم غير الاعتماد على الرجل .

والجوع حليف ملازم للصعاليك ، لم ينفر منهم ، ولم يبتعد عنهم لذلك كثر الحديث عنه في شعرهم وفي أخبارهم . وقد كانوا يهربون منه ، لكنهم لم يفلتوا منه . فقد كان ممسكاً بهم ، ملازماً لهم ، مـــا داموا صعالكـة ، فالجوع نفسه جزء من أجزاء الصعلكة . وفي شعر (عروة بن الورد) أن الجوع كان ينزل به ، حتى يكاد يهلكه ، أنزل به الهزال ، وأراه الموت ، لولا أنه كان يتهرب منه بالغارة ، لينال منهـــا البلغة ، فالمنايا خير من الهزال المقيت المميت[3] . وفي شعر للسليك بن السلكة ، أن الجوع كان يغشاه في الصيف ، حتى كان إذا قام تولاه اغماء شديد ، يريه الدنيا ظلاماً من أثر الجوع[4] .

وما دامت حياة الصعلكة جوع وفقر ، وإملاق وهروب من متعقب ، فالموت خير للصعلوك من حياة يعيشها فقيراً ، لا أقارب له تعطف عليه ، ولا أهـــل يشفقون عليه ، ولا قوم يراجعونه ويتعهدونه بالحماية[5] ، حياتـه موحشة قاسية ، تفور بالأخطار والتهلكة والمغامرات ، لا يدري متى يأتيه الموت ومن أين يأتيه ، إذا نام ، خاف من غادر قد يغدر به ، ومن متعقب يتعقب أثره ، ومن طالب ثأر يريد الأخذ بثأره منـــه ، ومن حيوان صعلوك مثله ، يريد أن يقضي على

---

١ تاج العروس (٣٣٩/٧) ، (رجل) ، (أجارت السليك بن السلكة السعدى ،وكان رجليا) ، المحبر (٤٣٣) .

٢ تاج العروس (٣٢١/٥) ، (خلع) .

٣ أقيموا بني لبنى صدور ركابكم ... فان منايا القوم خير من الهزل
ديوان عروة (١٠٦) .

٤ الاغاني (١٣٥/١٨) .

٥ اذا المرء لم يبعث سوامـا ولم يـــرح ... عليــه ، ولـم تعطف عليـــه أقاربـــه
فللمـوت خـير للفتـى مـــن حياتـه ... فقـيرا ، ومـن مولى تـدب عقاربـــه
ديوان عروة (١٥٠) ، وينسبان لغيره ، حماسة أبي تمام (١٦٦/١ ، ١٦٧) .

جوعه بافتراسه ، وهو معذور في ذلك لأنه جـائع لا طعام له ، ومن هنا هان الموت في نظر الصعلوك ، فهو معه يتبعه مثل ظله وملازم له ، وتولدت في نفسه فلسفة (الآجال) : فلسفة ان لكل نفس أجل ، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن الإنسان مهما عاش وعمر ، فلا بد من أن يلاقي الموت ويستجيب له،لن ينجيه منه قصر (ريمان) ، ولا حرس أبوابه المدججون بالسلاح ، يمنعون الناس من دخوله ، فالموت لا يعرف حرس القصور ولا يحول بينه وبين من يريد الوصول اليه حائل مهما كان . قال أبو الطمحان القيني :

لو كنتُ في ريمان تحرس بابه   أراجيل أحبوش وأغضف آلف
إذن لأتتني حيث كنت منيتي   يخبُّ بها هـاد بأمري قائف[1]

ولقرب الموت من الصعاليك ، ولتعقب أصحاب الثـأر دوماً لهم ، لازموا سلاحهم ، فكانوا لا ينامون إلا وسيفهم معهم . كما لازمهم الرقاد والسهر بالليل، خشية مباغتة غادر لهم ، والليل رفيق الغدر . لذلك كان ليلهم قصيراً ، ونومهم قليلاً ، من شدة قلقهم ومن تحسبهم لتعقب طلاب الثأر لهم ، ونجد في شعرهم اشارات الى مظاهر القلق الذي كان يستولي عليهم ، فيحول بينهم وبين النوم .

ونجد في شعر للشنفرى توجع وتألم ومرارة ، وإن صيغ بصورة الاستهتار بالموت وبالحياة ، فهو إن جاءه الموت ، فلن يبالي ، ولمَ يبالي ، وهو انسان خليـع بائس ، إن مات لا يجد من يبكي عليه أحد . فأي توجع أشد من هذا التوجع المصوغ في هذا البيت الساخر :

اذا ما أتتني ميتتي لم أبالها   ولم تذر خالاتي الدموع وعمّتي[2]

ولكن الحياة على ما فيها من مرارة وشقاء ، مطلوبة محبوبة ، فربَّ لحظـة فيها حبور تنسي كل ما كابده الانسان من تعاسة وشقاء ، والموت مكروه ممقوت، وإن تمنّاه المتمني ، وما تمنيه له إلا لثورة طارئة في النفس ولضيق في الصدر ، فإذا بان الموت لمتمنيه ضاق صدره ، وتمنى لو مد في عمره . يدفعه الأمـل الى

١ الاغاني (١١/١٣٣) .
٢ الاغاني (٢١/١٣٩) ، الشعراء الصعاليك (٣٣) .

التفكير في احتمال تغير الأوضاع ، وتحسن الحال ، والحصول على الغنى والمال ، بشرط أن يسعى ويضرب في الأرض وأن يكون صادق العزيمة ، لا يخور أمام المصائب مهما كانت شديدة عاتية ولا ينهار منها :

فسرّ في بلاد الله والتمس الغنى   تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا [1]

وقد كان عماد الصعلوك في حياته ، قوته الجسدية وسلاحه الذي يحارب به ، وجماعته الذين يأوي اليهم ، وكان يقاتل بضراوة ، قتال المستميت ، لأنه إن لم يدافع عن نفسه ، هلك ، إذ لا أمل له في وجود عصبية تدافع عنه ، أو أهل يقومون بافتدائه وتخليصه من أسر إن وقع فيه ، وسبيله الوحيد لخلاصه عند قيامه بغارة : المباغتة والهرب بما قد يحصل عليه بسرعة ، كي يأمن العاقبة ، وعمل الحيلة في التخلص من المآزق ، لكيلا يقع في ايدي متعقبه ، فيكون بذلك هلاكه ، وفي جملة ذلك الفرار ، للنجاة بالنفس من موت محتم . وهو فرار يؤدي به الى معاودة الغارة والتلصص ، إذ لا مورد له في هذه الحياة يتعيش منه غير هذين الموردين . فحاله في هذا القرار حال (أبي خراش) الهذلي حيث يقول :

فإن تزعمي أني جبنتُ فإنني   أفر وأرمي مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً   وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك [2]

ونظراً لفقر الصعاليك ، وعدم وجود مال لديهم يكفل لهم شراء فرس يركبونها في غاراتهم ، اعتمد أكثرهم على أرجلهم في طلب رزقهم ، وفي الحصول على معاشهم ، وعلى خفة حركاتهم ، وسرعتهم في الهروب من تعقب المتعقبين لهم في حالتي الفشل أو النجاح . وكان من بينهم من ضرب به المثل في زمانه في شدة العدو ، وفي سرعة الركض ، ورويت عنه الأقاصيص في ذلك . منهم (سليك بن المقانب بن السلكة) ، وهو عدّاء بالغ . يقال : أعدى من السليك [3] . وقد عرفوا لذلك بـ (العدائين) لشدة عدوهم [4] ، جمع (عداء) ، ومنهم أيضاً

---

1 ديوان عروة (١٩١) .
2 ديوان الهذليين (٢/١٦٩) ، الدكتور يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك (٤٠) .
3 تاج العروس (١/٤٠٩) ، (غرب) .
4 الخزانة (٢/١٧) .

(الشنفرى) : « شاعر عداء . ومنه المثل : أعدى من الشنفرى »[1] ، « وكان من العدائين . وفي المثل : أعدى من الشنفرى »[2] . كما عرفوا بـ (الرجليين) وبـ (الرجيلاء) ، وهم « قوم كانوا يعدون . كذا في العباب . ونص الأزهري: يغزون على أرجلهم ، الواحد رجليّ محركة أيضاً ... وهم سليك المقانب ، وهو ابن سلكة ، والمنتشر بن وهب الباهلي ، وأوفى بن مطر المازني »[3] ، «والرجلة بالفتح وبالكسر : شدة المشي ، أو بالضم القوة على المشي ، وفي المحكم : الرجلة بالضم المشي راجلاً »[4] . وقد صار العدو من أهم صفاتهم ومميزاتهم التي امتازوا بها عن غيرهم ، حتى قيل إن الخيل لم تكن تلحق بهم . ونعتوا بأنهم كانوا أشد الناس عدواً ، وانهم « لا يجارون عدواً » ، و« لا يلحقون »[5] . ومن العدائين : (تأبط شراً) ، و (عمرو بن البراق) ، و (أسيد بن جابر)[6]. وورد ان العرب كانت تضرب بالسليك المثل في العدو ، وتزعم انه والشنفرى أعدى من رئي[7] .

وضرب المثل بسرعة عدوهم ، واتخذ القصاص من شدة علو الصعاليك مادة أدخلوها في قصصهم ، وبالغوا فيها لتناسب طابع القص واسلوبه ، وقد وجد بعضه سبيلاً الى كتب الأخبار والأدب والعجائب والنوادر . وتؤلف المبالغات في سرعتهم وعدوهم أهم عنصر في القصص الذي يتحدث عنهم ، نجد فيها أن الصعلوك يسابق الخيل ، فيسبقها ، هذا (أبو خراش) الهذلي ، يدخل مكة ، فوجد (الوليد بن المغيرة) المخزومي ، يهم بإرسال فرسين له الى (الحلبة) فيقول له : ما تجعل لي إن سبقتها ؟ قال : إن فعلت فهما لك ، فأرسلا وعدا بينهما فسبقهما فأخذهما »[8] . وهذا (تأبط شراً) يوصف بأنه « كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر

---

١ تاج العروس (٣/٣١٨) ، (الشنفيرة) .
٢ تاج العروس (٣/٣٠٨) ، (شفر) .
٣ تاج العروس (٧/٣٣٩) ، (رجل) ، ثمار القلوب (١٣٥) .
٤ تاج العروس (٧/٣٣٦) ، (رجل) .
٥ الاغاني (١٢/٤٩) ، (١٨/١٣٣ وما بعدها) ، المرزباني ٤٦٨) ، الخزانة (٢/١٦) .
٦ تاج العروس (٣/٣٠٨ ، ٣١٨) ، (شفر) ، (شنفر) .
٧ ثمار القلوب (١٣٤) .
٨ الاغاني (٢١/٥٧) .

الى الظباء ، فينتقي على نظره أسمنها ، ثم يجري خلفه ، فلا يفوتـه حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله »[1] . الى غير ذلك من قصص وحكايات .

وقد فخر العداؤون بشدة عدوهم ، وتباهوا بمقدرتهم على العدو السريع، حتى أنهم نسبوا سبب نجاتهم من الموت الى عدْوهم هذا ، لا الى قتالهم وشجاعتهم، وبالغوا في شعرهم به ، حتى ذكروا أنهم كانوا يسبقون الخيل والظباء بل الطير[2]. هو نوع من (البطولة) في مفهوم الصعاليك ، حتى أنهم — كما قلت — فضلوه على الشجاعة، وإذا كانت الشجاعة ضرب من الإقدام وإظهار المقدرة والرجولية، فالركض فراراً ، نوع من البطولة أيضاً ، فيه مقدرة وشجاعة في ضبط الأعصاب وفي التصميم والإقدام عـلى السلامة والنجاة بالنفس وبقاء الحياة وهكذا أوجدوا لفرارهم عذراً اعتذروا به ، فهم إن اختاروا الفرار وفضلوه على المعاركة والقتال فإنما اختاروه لأن فيه أمل المعاودة الى قتال جديد ، ثم إنهم لا يرون سبباً يدعو الإنسان الى أن يرمي نفسه في المهالك ، وأن يكون طعامـاً للوحوش الكاسرة[3] . فليس في الهروب جـبن ، وليس في الاقدام شجاعة ، والعاقل من اتعظ فنجى نفسه من الموت ، وفي النجاة شجاعة .

وقد كان لسرعة عدو الصعاليك العدائين فضل كبير عليهـم في النجـاة من المهالك المحتمة ، هذا (تأبط شراً) ، يذكر في شعر له انه وقـع في فخ في موضع (العيكتين) ، وكاد يهلك ، لولا استعانته بالركض ، ولا أحد أسرع منه ، وبذلك نجا وخلص من الوقوع في داهية[4] . فلا عجب اذن ، اذا ما افتخروا بسرعة عدوهم ، وجاهروا بما لأرجلهم من فضل ومنة عليهم . فلولا العدو لما خرج (أبو خراش) سالماً من موت كان قـد أحاق به ، ولكنه غلب الموت بشدة عدوه وهروبه منه ، فعاد سالماً معافى الى حليلته ، فاستقبلته ابنته بقولها : « سلمتَ وما إن كدت بالأمس تسلم » ، وأنقذ بذلك ابنه (خراش) من الوقوع في اليتم[5] .

---

١ الاغاني (٢١٠/١٨) .
٢ الشعراء الصعاليك (٢٠٩ وما بعدها) .
٣ الشعراء الصعاليك (٢٠٩ وما بعدها) .
٤ المفضليات (٧ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٤٢) .
٥ الاغاني (٥٦/٢١ وما بعدها) ، ديوان الهذليين (١٤٨/٢) .

فلا عجب اذن ، إن رأينا (الحاجز الأزدي) ، يفدي رجليه بأمه وخالته، وهو فداء في نظرنا غريب ، لكنه ليس بغريب ، بالنسبة الى انسان رجلاه رأسماله في هذه الحياة ، بفضلها سلم من المهالك ، وحصل على قوته ، ولولاهما لكان من الهالكين :

فدى لكما رجليّ أمي وخالتي بسعيكما بين الصفا والأثائب[1]

وكان الصعاليك يغيرون فرساناً كذلك ، كانوا يجيدون ركوب الخيل والإغارة عليها ، وعدّ بعضهم من خيرة فرسان الجاهلية . ولعروة بن الورد فرس يسمى (قرمل)[2] ، وللسليك فرس يسمى (النحام)[3] ، وللشنفرى فرس يسمى (اليحموم)[4]، وقد عرفت هذه الأفراس بشدة عدوها .

والسلاح للصعلوك ، هو الحماية الوحيدة التي يتقيّ بها أذى الناس ، ويستعين بها في القضاء على خصمه ، وهو السيف والقوس والرمح والدرع والمغفر ، وكان لا يفارق سلاحه ، لأنه لا يدري متى ينقض عليه عدوّ له فيقتله ، فكان لا بد له من حمل سيفه معه ، واعتناقه له حين نومه ، وقد عد (عروة بن الورد) ، و (عمرو بن براقة) السلاح رأسمالها الذي يتكلون عليه في هذه الحياة[5] .

ولصعوبة تصعلك الرجل بمفرده ، تكتل الصعاليك كتلاً ، وكوّنوا لهم فرقاً، تكوّنت من أشتات وأنماط من الرجال،فيهم الحرّ الثائر ، وفيهم الضال الغاوي، وفيهم الأسود العبد ، وفيهم القاتل الفاتك . وهم بالطبع من قبائل مختلفة ومن بطون متنافرة . فلا تجمعهم عصبية القبيلة ، ولا نخوة العشيرة ، ومع ذلك فبينهم رابطة قوية ، ووحـــدة جمعت بينهم ، هي وحدة الدفاع عن النفس ، والذب عنها ، والكفاح في سبيل المعيشة ، بأي سبيل ، وبأية طريقة وجدت ووقعت ، حتى بالقتل . فمن وجد شخصاً ومعه مال ، لا يجد الصعلوك والقاتل سبباً أخلاقياً

---

١ الاغاني (٥٢/١٢) .
٢ قال عروة :
كليلـــة شيبـاء التي لست ناسيـــا وليلتنـــا اذ مـن مـا مـــن قرمـــل
تاج العروس (٧٩/٨) ، (القرمل) .
٣ ذيل الامالي ، للقالي (١٨٨) .
٤ ديوان الشنفرى ، تحقيق الميمني ، (لجنة) (ص ٤٠) .
٥ ديوان عروة (٢٠٧) ، الاغاني (١٧٥/٢١) .

يمنعه من قتله للحصول على ماله . فلما كان (عروة بن الورد) في أرض (بني القين) يتربص المارة ، فمرت به إبل ، فيها ظعينة ورجل يحرسها ، خرج اليه (عروة) فرمى الرجل بسهم في ظهره ، أرداه قتيلاً ، واستاق الإبل والظعينة[1].
ولما خرج (الأخينس) الجهني فلقي (الحُصين) العمري ، وكانا فاتكين ، وسارا حتى لقيا رجلاً من كندة في تجارة أصابها من مسك وثياب وغير ذلك ، طمعا به ، فاغتره (الحصين) فضرب بطنه بالسيف فقتله ، واقتسما ماله ، ثم ركبا ، وطمع (الأخينس) في مال (الحصين) فتربص به الفرص حتى أخذه على غرة فقتله واستولى على ما كان عنده ، في حكاية تروى، وفيه يقول الأخينس على لسان (صخرة) أخت (الحصين) :

تساءل عن حصينٍ كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين[2]

فالفاتك لا يجد مانعاً أخلاقياً يمنعه من الفتك بأي شخص إن وجد عنده المال ووجد له فرصة مؤاتية ، ثم هو لا يمتنع من الفتك حتى بزميله وصاحبه وشريكه في الإغارة والفتك ، والتاجر لا يأمن من حراسه ومن مرافقيه حتى يصل مقرّه، لأن الفقر لا يعرف أخاً ولا صديقاً وشريكاً ، قاتل الله الفقر ووقانا شرّه !

ونجد (تأبط شراً) ، يتبجح في شعر ينسب له ، فيقول انه لا يبيت الدهر إلا على فتى أسلبه ، أو على سرب أذعره[3] . ونجد صاحب (لامية العرب) ، إن صح انها للشنفرى ، يصف غارة ملأت الرعب في قلب من وقعت عليهم ، قام بها في ليلة باردة ، عاد منها سالماً معافى بغنائم ، وهو فرح بما تركه من قتل وسلب وألم في نفوس النساء والأطفال ، إذ يقول :

فأيمتُ نسوانا ، وأيتمت إلدةً وعدتُ كما أبدأتُ ، والليل أليلُ[4]

ونجد (السليك) يخرج مع صعلوكين يريدون الغارة ، فساروا حتى أتوا بيتاً متطرفاً ، ووجد شيخاً غطى وجهه من البرد ، وقد أخذته إغفاءة ، ومعه إبله

---

١ ديوان عروة (١١٣) ، (اخراج عبد المعين الملوحي) .
٢ عيون الاخبار (١/١٨١ وما بعدها) ، (طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي) .
٣ الاغاني (٢١٧/١٨) .
٤ الشعراء الصعاليك (٤٩) .

ترعى ، فأسرع اليه وضربه بسيفه فقتله ، ونهبوا إبله ، وعادوا بها مسرعين فرحين ، خشية شعور الحي بأمرهم وتعقبهم لهم . قتله دون أن يشعر بوخزة ضمير ، لقتله انساناً نائماً طاعناً في السن يرعى إبله ، وإن وجدناه يبرر فعلته هذه ، بأنه لم ينل هذه الإبل إلا بعد أن صكه الجوع ، واستولى عليه الفقر ، فهو قد قام به مضطراً[1] ، والضرورات تبيح المحظورات .

ونرى (صخر الغيّ) المزني ، يقول في شعر له ، انه قتل رجلاً من (مزينة) وسلبه ماله ، ليقوى به مال رجل فقير ، لا يملك مالاً :

في المزني الذي حششت به مالَ ضريك تلاده النكد[2]

وعلى الرغم من هذا العنف،ومن هذه القساوة العنيفة ، التي تصل الى الوحشية، نرى عند بعضهم ، روحاً إنسانية ، فيها العطف على الضعيف ومساعدة المحتاج وبذل المال والنجدة ، والبر للأهل والأقارب بل وللغريب أيضاً . بل نجد هذه الروح أحياناً حتّى عند القساة منهم ، وسبب ذلك أن الصعالكة في ثورات نفسية، يعيشون عيشة قلقة مضطربة ، فإذا كانوا في ثورة جامحة من جوع وحاجة وتألم بما حلّ بهم وبما هم فيه من سوء حال ، هاجوا فكفروا بكل شيء ، وثاروا على كل شيء وعلى كل أحد ، وصاروا لا يبالون بعرف ولا سنة ، يقتلون لأتفه الأسباب ، لأنهم معرضون أنفسهم في كل لحظة للقتل . ثم إن القتل لا شيء بالنسبة الى تلك الأيام ، وان تعاظم في نظرنا . فهم في ذلك مثل الأسود الجائعة، لا تعبأ بشيء ، وكل همّها الحصول على فريسة لتأكلها فتعيش عليها ، فاذا وجد الصعلوك غنيمة ، وعاد الى مقره سالماً ارتخت أعصابه ، وهدأت سورته ، وتذكر نفسه وما يقاسيه من ألم وجوع ، فيعود إنساناً آخر ، باراً بأصحابه حنوناً عليهم، نادماً على حياة يعيشها جعلته يعيش مثل الوحوش الكاسرة ، كريماً يعطي مما ناله بقوته وبسلاحه وبذكائه . هذا (عروة بن الورد) و (أبو خراش) الهذلي

---

١ وما نلتها حتى تصعلكت حقبة وكدت لاسباب المنية أعرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني اذا قمت تغشاني ظلال فأسدف
الشعراء الصعاليك (١٨٢ وما بعدها) .

٢ الشعراء الصعاليك (٢٣٨) .

وغيرهما ، نجد فيهم النقيضين ، نجد فيهم القسوة بل الوحشية ، ثم نجد فيهم العطف والشفقة والرحمة والاشفاق على الضعفاء ، وما الجمع بين النقيضين إلا من واقع هذه الظروف النفسية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية التي كانوا يعيشون فيها .

وفي شعر ينسب الى (أبي خراش) الهذلي ، امتداح للكرم ولكرامة الانسان في الحياة ، وترفع عن المذلة وتباه بإيثار الغير على نفسه ، مع انه فقير صعلوك، فهو يقول :

وإني لأثوي الجوعَ حتى يملني	فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبق الماء القراح فأنتهي	اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه	وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة	وللموتُ خيرٌ من حياة على رغم[1]

وقد عاش هؤلاء على المباغتة والغارات ، فكانوا يتسترون في المواضع الوعرة، وفي مفارق الطرق وشعاب الجبال حتى اذا مر بهم مار ، ووجدوا أن في إمكانهم الحصول على غنيمة ، باغتوه ، وأخذوا منه ما هو عنده . وقد يغيرون على الأحياء ليلاً ، فيأخذون ما يجدونه أمامهم ، ثم يجرون بسرعة حتى لا يدركهم أحد ، ليصلوا الى مواضع آمنة بعيدة عن التعقيب ، مثل الكهوف والمغاور والآكام، يأوون اليها ويعيشون بها عيشة الخائف المتشرد الهارب من مجتمعه ، الحاقد عليه ، لأن في قلبه حقداً عليه ، لأنه لم يفهمه ولم يفهم سبب نقمته على مجتمعه. وأكثرهم من الشباب الذين خرجوا على طاعة أوليائهم أو على عُرف مجتمعهم ، أو عوملوا معاملة أشعرتهم انها اذلتهم وجرحت كرامتهم،فانفصلوا بذلك عن أهلهم وعشيرتهم أو فصلهم أهلهم عنهم ، فلم يبق أمامهم من سبيل سوى التصعلك والتشرد .

وكان من هؤلاء مثل (عروة بن الورد) من جمع حوله الصعاليك، ولفّهم حوله ، فكان يغزو بالقوي الجسر منهم،فإذا أصابوا مغنماً جاءوا به الى أصحابهم الضعفاء ممن لا يتمكن أو لا يتجاسر على الغارة ، فيصيبونهم مما أصابوا ويعينونهم مما غنموا ، وحياة على مثل هذا الطراز ، هي حياة شديدة قاسية ولا شك .

---

١ ديوان الهذليين (٢/١٢٧) ، (دار الكتب) ، الاغاني (٢١/٤٢) .

وقد كانت المرتفعات الصعبة المشرفة على المسالك والطرق الضيقة من أهم الأماكن المحببة الى نفوس الصعاليك وقطاع الطرق ، يحتمون بالمواضع المشرفة منهـا على الطرق لمراقبة المارة ، من (مرقبة) تخفي معالمها لئلا يراها أو يفطن لوجودها سلاك الطرق ، فاذا مروا بهـا انقضوا عليها منها ، وكأنهم هبطوا عليهم من السماء . ونجد لها ذكراً في شعر الصعاليك واللصوص وقطاع الطرق[1] . وقد اشتهر جبل هذيل بمرقباته ، ورد : « والمرقبة جبل كان فيه رقباء هذيل »[2] .

ونجد في شعر (تأبط شراً) أنه كان يغير على (أهل المواشي) و (أهل الركيب) والحب ، وعلى (أرباب المخاض) ، فعند هؤلاء ما يطمع فيه الفقير الصعلوك من مال وحب يعتاش عليه ، ومن نوق حوامل[3] . ونرى (الأعلم) الهذلي ، يذكر أنه يغزو المترف السمين ، الذي يعيش بين الستائر والكنيف ، بينما هو وأمثاله لا يملكون شيئاً ، فاذا هاجموه ، خاف وانهد كيانه[4] . ولهذا صار الساكنون في الأرضين الخصبة والتجار والسابلة من خيرة الأهداف التي كان يترصدها الصعالكة ، لعلمهم بوجود شيء عند أصحابها ، أكثر مما يجدونه عند الأعراف الضاربين في البوادي النائية المكشوفة .

ويطمع الصعاليك أيضاً بعضهم في بعض ، فالحياة جوع وفقر ، والفقر كافر لا يعرف عرف (المهنة) ولا مجاملات الصنف ، ثم هم أبناء البادية ، ومن طبع البادية ، أن يغير أبناؤها بعضهم على بعض ، للحصول على لقمة العيش ، فكان الصعاليك تبعاً لهذه السنة يغير بعضهم على بعض، خاصة اذا كانوا صعاليك متعادية. فكان بين صعاليك هُذيل وصعاليك فهم ، عداء شديد ، وحقد دفين ، بسبب العداوة بين الحيين[5] ، عداوة مرجعها تجاور الحيين ، واختلاف مصالحهما الحيوية، وطمع القبيلتين في (بجيلة) ، و (بجيلة) في جوار (الطائف) ، وهي غير

---

١ الشعراء الصعاليك (١٨٦ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (١/٢٧٦) ، (رقب) .

٣ فيوماً على أهل المواشي وتارة ... لاهل ركيب ذي ثميل وسنبل
ولكن أرباب المخاض يشفهم ... اذا اقتفروه واحداً أو مشيعا
الاغاني (١٨/٢١٧) ، حماسة أبي تمام (٢/٢٨) .

٤ الشعراء الصعاليك (٢٣٧) .

٥ شرح أشعار الهذليين (١/٢٣٣ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٤٨) .

بعيدة عن فهم ، ولا تبعد منازلها بعداً كبيراً أيضاً عن ديار هذيل[1] .

وكان بين (صخر الغي) الهذلي و (تأبط شراً) عداء شديد . وقد سمي (الهذلي) (تأبط شراً) بـ (ابن ترني) ازدراء به . ونجد في الشعر الوارد في هجاء الشاعرين بعضهما لبعض لوناً طريفاً من ألوان هذا الصراع الذي كان يقع بين الصعاليك[2] ، وهو صراع أسبابه عديدة ، صراع متولد من عصبية قبلية ، أو من تنافس وتحاسد في الحرفة وعلى الرئاسة والزعامة والصيت والشهرة ، أو في طمع كل واحد منهم في الآخر للاستيلاء على ما حصل عليه من مال ليتعيش به.

وقد انتشر الصعاليك في كل موضع من جزيرة العرب ، ففي كل مكان منها جوع وفقر وصعلكة ، حتى صاروا قوة مرعبة مخوفة ، لشدة بأسهم في القتال ، ولمعرفتهم بالمسالك وبمنافذ الطرق وبمداخلها وبأسرار البوادي وخفايا النجاد والجبال ، فكانوا أن اتخذوا من الكهوف والمنحدرات والمسترات المشرفة على الأودية والطرق ، مواضع رصد واختفاء ، يراقبون منها حركات المارة ، فإذا وجدوهم دخلوا موضعاً صعباً ، يمكن حصرهم به ، انقضوا عليهم ، فأخذوا منهم ما يكون عندهم من متاع هذه الدنيا ، ثم هربوا بما غنموا الى مخابئهم حيث لا يصل اليهم أحد ، وإن وجدوا أن السابلة أقوى منهم وأشد بأساً ، اتخذوا من الفرار وسيلة للسلامة والنجاة ، فلا يلحقهم متعقب ، ولا يطمع أحد في إصابتهم بمكروه ، وهم على علم واسع وخبرة عالية بمجاهل البوادي وبخبايا الأرض ، وهكذا يكونون في نأي عن التعقيب وفي منجاة من التعقب . ولما سدت السبل في وجه (النعمان ابن المنذر) بعد أن غضب كسرى عليه ، وأخذ يتنقل من مكان الى مكان ، لجأ الى (هانيء بن قبيصة) الشيباني ، فأجاره « وقال : لزمني ذمامك ، وإني مانعك مما أمنع نفسي وأهلي وان ذلك مهلكي ومهلكك ، وعندي رأي لست أشير به لأدفعك عما تريده من مجاورتي ، ولكنه الصواب ، فقال هاته ، قال : إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه ، إلا أن يكون بعد الملك سوقة . والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريماً خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك . امض الى صاحبك واحمل عليه هدايا ومالاً والق نفسك بين يديه ،

---

١ شرح أشعار الهذليين (١/٢٣٣ وما بعدها) .
٢ الشعراء الصعاليك (١٩٢) .

فإما أن يصفح عنك فعدت ملكاً عزيزاً ، واما أن يصيبك ، فالموت خير من أن تتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها »[1] ، وفي نصيحة هانيء، للنعمان، واشارته فيها الى (صعاليك العرب) دلالة على انتشارهم في كل مكان . وأنهم صاروا خطراً على الأمن ، يحسب له كل حساب .

ولما خلع (امرؤ القيس) ، وصار ضلّيلاً خليعاً ، « جمع جموعاً من حمير غيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها »[2] ، وأخذ يغير بهم على أحياء العرب ، ما كان (امرؤ القيس) ليجمع جمعهم ويحزبهم حزبه لو لم تكن في نفسه حاجة لهم ، فقد كانوا قوة ، وقد صاروا رعباً يخيف الناس ، كالذي كان في جبل (تهامة) من تكتل خليط من كنانة ومزينة والحكم والقارة والسودان ، من تكتلهم ولمهم وأخذهم من كان يمر بالغارة والنهب والسلب ، بقوا على ذلك أمداً ثائرين على مجتمعهم ، حتى ظهر الاسلام ، فكاتبهم الرسول ، وأمنهم انهم ان آمنوا وأقاموا الصلاة ، وصدقوا ، « فعبدهم حر ، ومولاهم محمد ، ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها ، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس رد اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان »[3] . فهم قوم متمردون ثائرون لا يعطون أحداً طاعة ، إلا طاعة أنفسهم والمترئس فيهم . ولعل هذا هو الذي حدا بأهل النسب والأخبار أن يقولوا : « والخلعاء : بطن من بني عامر بن صعصعة ... كانوا لا يعطون أحداً طاعة »[4] .

وهكذا وضع (الصعاليك) أنفسهم في خدمة من يريد استخدامهم لتحقيق أهدافه التي يريدها ، مقابل ترضيتهم وإعاشتهم ، كما يفعل الجنود المرتزقة هذا اليوم من خدمة الدول الأجنبية ، بانضمامهم الى الفرق الأجنبية ، كما هو الحال في (فرنسا) مثلاً لاستخدامهم في القتال .

وقد جعلت حياة التشرد والغارات والهروب والفرار الى مواضع بعيدة نائية وفي مجاهل البرادي ، الصعاليك من أعلم الناس بدروب جزيرة العرب ، وبالمواضع

---

١ الاغاني (٢/١٢٦) ، الخزانة (١/١٨٥ وما بعدها) .
٢ الخزانة (٣/٥٣٢) ، (جمع جمعا من بني بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب) ، معاهد التنصيص (١/٥) .
٣ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٨) ، (صادر) .
٤ تاج العروس (٥/٣٢١) .

الصعبة منها بصورة خاصة . وقد وصف (السليك) ، (البعيد الغارة) بأنه « أدل من قطاة » ، ونعت الصعاليك جميعاً بأنهم « أهدى من القطا »[1] ، وافتخر الصعالكة أنفسهم بأنهم كانوا يعرفون عن خفايا البوادي والجبال ما لا يعرفه أحد غيرهم ، وبذلك كانوا ينجون أنفسهم من تعقب المتعقبين لهم[2] .

ونجد لشذاذ العرب ، ذكراً في أخبار الغزو وفي أخبار الأخذ بالثأر ، وفي أخبار من كان يريد الانتقام من أعدائه ، فلما غزا (زيد الخيل) الطائي (بني عامر) ومن جاورهم من قبائل العرب من قيس ، « جمع طيئاً وأخلاطاً لهم ، وجموعاً من شذاذ العرب »[3] ولما غزا (زهير بن جناب) الكلبي ، بكراً وتغلب أخذ « من تجمع له من شذاذ العرب والقبائل » وغيرهم فغزا بهم[4] . وقد كان هؤلاء (الشذاذ) على استعداد لوضع أنفسهم في خدمة من يريد استخدامهم في مقابل أجر ، أو يتكفل بإعاشتهم وإرزاقهم ، أو من يرزقهم غنيمة من غارة يساهمون فيها ، فلما أراد (أبو جندب) الهذلي ، الأخذ بثأر جارين له قتلهما (بنو لحيان) ، قدم مكة ، فأخذ جماعة من خلعاء بكر وخزاعة ، وخرج بهم على بني لحيان ، وكان قد « قدم مكة ، فواعد كل خليع وفاتك في الحرم أن يأتوه يوم كذا وكذا ، فيصيب بهم قومه » ، ليثأر لأخيه[5] .

وكانت مكة على ما يظهر من أخبار أهل الأخبار ، مكاناً أوى اليه ذؤبان العرب وخلعاؤهم وصعاليكهم ، حتى كثر عددهم بها ، لما وجدوه فيها من حماية ومعونة ، وكان أحدهم اذا جاءها ، نادى قريشاً نداء النخوة لتؤويه وتجيره ، فيقوم أشرافها بحمايته وتقديم الجوار له . ومن هنا نجد الفتاك وأهل الغي والضلال يجوسون خلالها في أمن وسلام ، لحرمة المدينة ولحرمة حقوق الجوار ، ولعل المصالح الاقتصادية التي كانت تجنيها قريش من هذا الإيواء ، كانت السبب الأول في جعل سراتها يقدمون العون والجوار لأولئك الذؤبان الفتاك الذين كانوا لا يتورعون من الإقدام على أي عمل مهما كان شأنه خطيراً ، حتى إن كان فيه هلاكهم ،

---

١ الاغاني (١٨/١٣٤) ، المرزباني (٤٦٨) ، الشعراء الصعاليك (٥٤) .
٢ الاصمعيات (١/٣٥) .
٣ الاغاني (١٦/٥٢) .
٤ الاغاني (٢١/٩٦) .
٥ الاغاني (٢١/٦٢ وما بعدها) ، شرح أشعار الهذليين (١/٨٣ وما بعدها) .

أو جاء بالأذى على من أحسن اليهم وأجارهم ، فهم قوم أصابهم طيش وركبهم التمرد والحقد على المجتمع ، فهم لا يبالون بارتكاب أية موبقة ولو وقعت منهم في الحرم ، فقد كان في وسع تجار قريش تأمين تجارتهم بالإحسان الى هؤلاء الذين كان في استطاعتهم مهاجمة القوافل ونهب ما معها من أموال ، كما كان بامكانهم استخدامهم حرّاساً يخرجون مع قوافلهم لحراستها من بقية الصعاليك الى وصولها الى الأماكن التي تريدها ، كما كان في استطاعتهم الاستفادة من الفتاك في الفتك بمن يناصبهم العداء ، وفي القضاء على كل من يريد التحرش بقرشي أو بأموال قريش أو حلفائهم . وبذلك تمكنوا من حماية تجارتهم من الصعاليك ومن الأعراب الذين قد تمر تجارة قريش بهم ، وإن كانت قريش قد أمنت جانبهم أيضاً بعقد حبالها مع سادات القبائل بإيلاف عرف بـ (إيلاف قريش) في القرآن الكريم .

وكان (البراض) ، وهو (رافع بن قيس) وهو من الفتاك ، قد لجأ الى مكة ، فحالف (بني سهم) من قريش ، فعدا على رجل من هذيل فقتله ، فخلعه (العاص بن وائل) فأتى (حرب بن أمية) فحالفه ، فعدا على رجل من خزاعة فقتله وهرب الى اليمن ، فخلعه (حرب) ، فلما ضاقت به السبل ذهب الى الحيرة ، وطلب من النعمان أن يجير له (لطيمته) ، فقال له (الرحال ابن عروة) : « أنت تجيرها على أهل الشيح والقيصوم ؟ وإنما أنت كلب خليع ! » فأعطاها (النعمان) الى (عروة) ، فخرج (البراض) في أثره ، فلما انتهى الى (أوارة) قتله وانتهب اللطيمة ، فكان بسببه حرب الفجار بين كنانة وقيس[1].

وبين الصعاليك قوم من (الغربان) (غربان العرب) ، وأغربة العرب سودانهم . شبهوا بالأغربة في لونهم ، وكلهم سرى اليهم السواد من أمهاتهم[2] . تصعلكوا لازدراء قومهم لهم ، ولانتقاص أهلهم لشأنهم ، وعدم اعتراف آبائهم ببنوتهم لهم ، لأنهم أبناء إماء . أو لفقرهم ، وظلم المجتمع لهم ، وعدهم طبقة مملوكة ، هم والحيوان المملوك سواء بسواء . ليس لأحدهم جسمه ، ولا أهله ولا نسله ، وكل ما يملكه أو ما يحصل عليه يكون ملك سيده ، ومن خالف أمره منهم ، جاز لسيده قتله ، ولسيده حق الاستمتاع بمملوكته وبجواره من غير

---

١ المحبر (١٩٥ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٤٠٩/١) ، (غرب) .

قيد ولا شرط . وهذا ما جعل بعض الرقيق يهرب من سيّده ، فراراً من ظلمه، لينضم الى الصعاليك،أو ليكون عصابة تلجأ الى الجبال والكهوف ، تهاجم المارة ، والأحياء ، لتحصل على ما تتعيش به . ولما ظهر أمر الرسول ، كتب لجماع كانوا في جبل تهامة قد غصبوا المارة،وهم خليط من كنانة ومزينة والحكم والقارة، ومن فرّ من سادته من العبيد ، كتاباً ، فيه أنهم « إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فعبدهم حرّ ، ومولاهم محمد ، ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها ، وما كان فيهم من دمٍ أصابوه أو مالٍ أخذوه ، فهو لهم ، وما كان لهم من دين في الناس ردّ اليهم ، ولا ظلم عليهم ولا عدوان »[1] .

وأغربة العرب ، أو أغربة الصعاليك بتعبير أصدق ، كثيرون ، فقد كانت عادة اتصال العرب بالزنجيات منتشرة في الجاهلية ، وقد أولدت طبقة من الهجناء امتازت بسرعة العدو وبالشجاعة ، وبتحمل المشقات ، وكلها من مولدات الظروف. ولكن أشهر أغربة الصعاليك : السليك بن السلكة ، وتأبط شراً . وقد جعل (ابن قتيبة) أغربة العرب ثلاثة : عنترة ، وخفاف بن عمير الشريدي ، والسليك بن عمير السعدي[2] ، ولكن عددهم أكثر من ذلك بكثير ، يدخل فيهم الصعاليك وغيرهم .

أما الباقون ، فهم من شذاذ العرب ، ومن الخلعاء المطرودين المنبوذين، الذين طردوا من أهلهم أو من عشيرتهم وقبيلتهم ، وحرموا من (العصبية) ، فلا أحد يسأل عنهم ، ولا أحد يُسأل عن جرائرهم وأعمالهم ، فدمهم هدر ، ومسؤوليتهم على عاتقهم وحدهم . وهم من عشائر مختلفة ، فلا ينتسبون الى نسب واحد ، ونسبهم الوحيد الذي يربط بينهم ، هو الصعلكة ، والتمرد على المجتمع والتشرد في البوادي والهضاب والجبال ، ولهذا نجد الصعاليك من مختلف قبائل وعشائر جزيرة العرب ، قد يتكتلون في مجموعات تضم صعاليك قبيلة واحدة ، وقد يتكتلون في جماعات تتكون من صعاليك قبائل مختلفة . وتكون الألفة بين صعاليك القبيلة الواحدة أشد وأقوى من الألفة التي تكون بين صعاليك القبائل المختلفة ، لما يكون

---

١ ابن سعد ، طبقات (٢٧٨/١) ، « ذكر بعثة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الرسل بكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام وما كتب به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لناس من العرب وغيرهم » .

٢ الشعر والشعراء (١٧٢/١) ، (دار الثقافة) ، (عنترة) ، الاغاني (٢٤٠/٨) .

للنسب والدم من أثر في نفوسهم ، وإن كفروا بعرف القبيلة وخرجوا على طاعتها. ونجد في شعر شعرائهم إشادة بأخوة (الصنف) و (الحرفة) تحل محل اخوة العشيرة والقبيلة ، اذا مات أحدهم أو قتل ، حزنوا عليه ، وإن مرض عالجوه، وان جاع قدموا له ما عندهم من طعام[1] .

وقد يستجير الخليع بمجير ، فيقبل جواره ، الى حين أو بغير أجل محدد ، أو على شروط ، ففي حديث خروج (امرىء القيس) مطالباً بدم أبيه ، أنه لجأ الى (عامر بن جوين) أحد الخلعاء الفتاك ، وعامر يومئذ خليع ، تبرأ قومه من جرائره وتنصل أهله منه[2] ، وفي حديث (البراض بن قيس) الكناني وكان خليعاً فاتكاً سكيراً ، لا ينزل بقوم ، إلا عمل منكراً فيهم — ، أنه لجأ الى بني (الديل) ، فشرب وجرّ جريرة ، استوجبت خلعه فخلعوه ، فأتى مكة ، فنزل على حرب بن أمية ، فحالفه وأحسن جواره ، ثم شرب بمكة وأساء على عادته ، حتى همّ حرب أن يخلعه[3] ، وفي حديث (أبي الطمحان) القيني، وكان خليعاً فاسقاً ، متهتكاً ، لا يعرف خلقاً ولا أدباً ، أنه نزل بمكة في جوار (الزبير بن عبد المطلب) ، « وكان ينزل عليه الخلعاء »[4] ، ونزل (مطرود ابن كعب) الخزاعي ، في جوار (عبد المطلب) ، فحماه وأحسن اليه ، وكان قد لجأ اليه لجناية كانت منه[5] ، ووجد (قيس بن الحدادية) من يؤويه ، مع أنه كان صعلوكاً خليعاً ، عجز هو وأهله عن دفع دية قتيل قتلوه، فخلعته قبيلته خزاعة ، فنزل عند بطن من خزاعة ، يقال لهم : (عدي بن عمرو بن خالد)، فأحسنوا اليه ، كما نزل في بجيلة على (أسد بن كرز) فأحسن اليه والى قومه[6].

ولا ينسى بعض الصعاليك ذكر من أحسن اليهم فأكرمهم ورعاهم وحماهم . هذا (أبو الطمحان) القيني ، يثني على من آووه وساعدوه حتى صيروه واحداً

---

١ الشعراء الصعاليك (٢٠٣ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٩/٩٥) ، الخزانة (١/٢٤) .
٣ الاغاني (١٩/٧٥) .
٤ الشعر والشعراء (١/٣٠٤) ، الاصابة (١/٣٨١) ، (رقم ٢٠١١) ، الاغاني (١١/١٢٥) .
٥ المرزباني ، معجم (٢٨٢) .
٦ الاغاني (١٣/٢ وما بعدها) .

منهم ، لا تتحرش به كلابهم ، لأنها عرفت ثيابه ، وتأكدت انه واحد منهم، فلا تهر عليه[1] . وهذا (حاجز) الأزدي ، يفخر بانتسابه الى (بني مخزوم) من قريش ، وهم قوم لا يخذلون أحداً اذا استنصر بهم ، وجعل حلفه فيهم ، اذا أصاب حليفهم مكروه ، هرعوا اليه لنجدته ، فهم أهل النجدة والكرم[2] . وهذا (قيس بن الحدادية) يثني على (آل عمرو بن خالد) أحسن ثناء ، ويدعو الله أن يجزيهم خيراً لما فعلوا من حميد الفعال لصعلوك خليع[3] .

والصعاليك كثيرون ، وقد خلدت أسماء جماعة منهم في كتب الأدب والأخبار، أشهرهم وأبرزهم : (عروة بن الورد) ، و (الشنفرى) ، و (تأبط شراً) ، و (السليك بن السلكة) ، وآخرون .

وللصعاليك بعد قصص في الكتب ، وقد بولغ في قصصهم لتؤثر في المسامع ، ولتكون لذة للسامعين ومتعة يستمتعون بها أوائل الليل في أوقات سمرهم ، وقد رصعت بشعر ، على عادة العرب في رواية الأخبار . وفي بعض هذا القصص والشعر أثر الوضع المتعمد ، الذي صنع ليمثل الحالة الاجتماعية في ذلك الوقت ، حيث كان الأغنياء متخمين بالمال ، بينما جيرانهم يموتون جوعاً ، فكأن هذا القصص قد وضع ليتحدث عن ذلك الوضع . وقد عرف هذا القصص عند الغربيين كذلك ، حيث كان الغنى وكان الفقر ، فظهر الصعاليك ، وظهر قصصهم وبولغ فيه ، وما (روبن هود) الانكليزي الذي آثر التصعلك وغزو الأغنياء ، لإنفاق ما يحصل عليه على الفقراء لإعاشتهم ، إلا صورة من صور غارة (عروة بن الورد) وأمثاله من الصعاليك ، وقد دونت أخبارهم في قصص ، وصيغ بعض منها على صورة أشرطة (سينمائية) عرضت ولا تزال تعرض في دور (السينما) وفي (التلفزيون) ، لما فيها من بطولة ومروءة ومساعدة ضعفاء واستهتار في الحياة .

---

١ وقد عرفت كلابهم ثيابي ... كأني منهم ونسيت أهلي
الحيوان (١/٣٨٠) ، الشعراء الصعاليك (٢٢٩) .

٢ قومي سلامان اذ ما كنت سائلة ... وفي قريش كريم الحلف والنسب
اني متى أدع مخزوما ترى عنقا ... لا يرعشون لضرب القوم من كثب
الاغاني (١٢/٤٩) .

٣ الشعراء الصعاليك (٢٢٩) .

وأما (عروة بن الورد) ، فهو من (عبس) وكان شاعراً فارساً وصعلوكاً مقدماً ، عرف بـ (عروة الصعاليك) « لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه »[1] . وهو شاعر بدوي قح ، وكان أبوه ممن كان له ذكر في حرب داحس والغبراء ، وقد مدحه (عنترة) ، وكانت أمه من (نهد) ، ولم تكن من أهل البيوتات . وكان لشعره أثر في قومه : حتى كانوا يرون أنه أشعر الشعراء[2] .

وذكر أنه إنما لقب بعروة الصعاليك لقوله :

لحى اللهُ صعلوكاً إذا جن ليله مُصافي المشاش آلفاً كل مجزر
يعدُّ الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاءً ثم يصبح قاعداً يحت الحصى عن جنبه المتعفر
ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلٌ على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر[3]

ويظهر من شعر لعروة ، انه كان نحيلاً ، شاحب الوجه هزيلاً ، فكانوا يعيرونه بذلك ، وكان يجيبهم بقوله :

إني امرؤٌ عافى انائي شركة وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحد
أتهزأ مني ان سمنتَ وان ترى بجسمي شحوبَ الحق، والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرةٍ وأحسوا قراحَ الماء ، والماء بارد[4]

فهو نحيف نحيل شاحب الوجه ، لأنه يشرك الآخرين معه في أكله وشربه ،

١ تابع العروس (١٥٣/٧) ، (صعلك) .
٢ الاغاني (١٨٤/٢ وما بعدها) « دار الكتب » ، الخزانة (١٩٤/٤) بروكلمن ، (١٠٩/١ وما بعدها) .
٣ الشعر والشعراء (٥٦٦/٢) ، (الثقافة) ، من قصيدة مطلعها :
أقل علي اللوم يا بنت منذر ونامي ، وان لم تشتهي النوم ، فاسهري
ديوان عروة بن الورد (٦٦ وما بعدها) ، (اخراج عبد المعين الملوحي) ، (وزارة الثقافة والارشاد . الجمهورية العربية السورية) ، الاغاني (٩٧/١٦ وما بعدها).
٤ ديوان عروة (٢) ، الاغاني (٧٢/٣ وما بعدها) ، الجمان في تشبيهات القران (٢٥٧) .

أما المازىء به ، فهو أناني ، لا يشرك أحداً معه في أكله ، وانائه واحـــد ، لا يأكل به أحد غيره ، ولذلك سمن وثخن من التخمة ، أما هو ، وهو الوهاب فكان يقتّر على نفسه ، ويجوع ، ليأكل غيره أكله ، فأصابه من ثم هذا الهزال. فهو انسان ، يقسم ما عنده وما يأتيه على نفسه وعلى غيره ، وقد يقدم غيره على نفسه . ومن هنا « كان يقال : من قال إن حاتماً أسمح العرب ، فقد ظلم عروة ابن الورد »[1] .

ويذكرون أنه أصاب في بعض غاراته امرأة من كنانة ، فاتخذها لنفسه ، فأولدها ، فلقيه قومها ، وقالوا : فادنا بصاحبتنا ، فإنا نكره أن تكون سبية عندك . قال: على شريطة ، قالوا : وما هي ؟ قال ! على أن نخيرها بعد الفداء ، فإن اختارت أهلها أقامت فيهم ، وإن اختارتني خرجت بها . وكان يرى أنها لا تختار عليه ، فأجابوه الى ذلك ، وفادوا بها ، فلما خيّروها اختارت قومها ، وتركته فنظم في ذلك شعراً[2] .

وذكر أن (معاوية) تذكر (عروة بن الورد) ، فقال : « لو كان لعروة ابن الورد ولـــدٌ لأحببت أن أتزوج منهم » . وان (عبد الملك بن مروان) تذكره يوماً ، فقال : « ما يسرّني أن أحداً من العرب ممن ولدني لم يلدني إلا عروة بن الوردِ لقوله :

واني امرؤ ، عافى إنائي شركةٌ   وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحدُ[3]

وهو بيت يمثل خلق هذا الشاعر ومروؤته التي أبت عليه إلا أن يشرك غـــيره من الضعفاء والمحتاجين فيما يحصل عليه وينا له من المتمكنين بالإكراه والقوة . إناؤه مليء لبناً ، حتى يفيض ويكثر ، فإن طرقه إنسان وجد اللبن أمامه ، يشرب منه وهو شريكه فيه ، شريكه في كل شيء عنده قلّ أو كثر ، وهو يفتخر بذلك ويتبجح بإشراكه غيره إنائه على من حرص على ماله ، وبخل بما عنـــده ، مثل (قيس بن زهير) ، الذي استأثر بما عنده ، فلم يعطِ لمحتاج شيئاً منه . فصار

---

١ الروض الانف (٢/١٨٠) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٦٧) .
٣ ديوان عروة (٢) ، الاغاني (٣/٧٢ وما بعدها) .

يسمن وغيره يجوع ، على حين كان (عروة) يختار الجوع ، ليأكل الجياع، لتعود اليهم القوة والحياة ، ولا يبالي هو بنفسه إن جاع ، وفي ذلك يقول :

إني امرؤ عافي إنائيَ شركةٌ وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني إن سمنت وأن ترى بوجهي شحوبَ الحق،والحقجاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرةٍ وأحسو قراح الماء ، والماء بارد

وكان قد قال هذه الأبيات رداً على أبيات (قيس بن زهير) التي خاطب بها (عروة) بقوله :

أذنب علينا شتم عروةَ خالهِ بغـرة أحساء ويوماً بيدبـد
رأيتك ألافاً بيـوتَ معاشر تزال يد في فضل قعب ومرفد[1]

وللأخفش حديث عن مروءة (عروة) وعن انسانيته فيقول : « عن ثعلب عن ابن الأعرابي ، قال : حدثني أبو فقعس ، قال : كان عروة اذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ؛ وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس ، من عشيرته في الشدة ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن قويَ منهم ، إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً ، حتى اذا أخصب الناس وألبنوا ، وذهبت السنة ، ألحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، وربما أتى الانسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمي : عروة الصعاليك »[2] .

ومن هنا عدَّ من أصحاب الكرم والسماحة والسخاء . حتى قيل إن عبد الملك قال : « من زعم أن حاتماً أسمح الناس ، فقد ظلم عروة بن الورد »[3] . وقيل إنه بلغه عن رجل من بني (كنانة بن خزيمة) ، أنه من أبخل الناس وأكثرهم مالاً ، فبعث عليه عيوناً ، فأتوه بخبره فشدَّ على إبله فاستاقها ثم قسمها في

---

١ ديوان عروة (٥١ وما بعدها) .
٢ ديوانه (٨ وما بعدها) ، الاغاني (٧٨/٣ وما بعدها) ، التبريزي ، شرح حماسة أبي تمام (٩/٢) ، جمهرة أشعار العرب (١١٤ وما بعدها) .
٣ ديوان عروة (٣) ، الاغاني (٧٤/٣) .

قومه . فقال عند ذلك :

ما بالثراء يسود كل مسوّدٍ مثرٍ ، ولكن بالفعال يسودُ
بل لا أكاثر صاحبي في يُسره وأصد إذ في عيشه تصريد
فإذا غنيتُ ، فإن جاري نيله من نائلي ، وميسّري معهود
وإذا افتقرت ، فلن أرى متخشعاً لأخي غنى ، معروفه مكدود[1]

فالسيد بفعاله ، وأعماله لا بالمال . وهو يقول في شعر له ، ان فراشه فراش الضيف ، وأن بيته بيت للضيوف ، يجالس الضيف ويحادثه ، فالحديث جزء من القرى :

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهني عنه غزال مقنع
أحدثه ، إن الحديثَ من القرى وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

وفي خبر آخر ، ان سنين شديدة أصابت الناس ، فأهلكتهم ، وترك الناس الغزو لجدوبة الأرض ، وكان عروة في تلك السنين غائباً ، فرجع مخفقاً ، قد ذهبت إبله وخيله ، وجاء (الكنيف) ، أي الحظيرة والمأوى ، فوجد أصحابه وقد سقطوا من الإعياء والشدة ، فندب منهم رهطاً ، فنحر لهم بعيراً ، وحملوا سلاحهم على بعير آخر ، وقدّد لهم بعيراً ، فوزعه بينهم . وخرج بهم غازياً يلتمس الرزق . وهو يقول لهم : ان أصبنا رغبة فذلك الذي نريد ، وإن رجعنا خائبين ، كنا معذورين . قد أدينا ما علينا ، ولن نقعد عن الطلب . فهو يحثهم على الرزق والطلب ، دون تفكير في نجاح أو فشل ، فالحياة : نجاح وفشل ، ومن فشل ، عليه المواظبة حتى ينجح ويستعيد قواه ، وذلك قوله :

قلت لقومٍ في الكنيف : تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزح[2]

الى آخر الأبيات .

وهو يصف في أبيات حالة الفقير وما يلقى من ظلم ، وحالة الغني وما يلقاه

---

١ ديوان عروة (٤٨) ، شرح ديوان عروة (١٨١) .
٢ ديوانه (٢٠ ، ٣٩ وما بعدها) .

من إجلال . فيقول :

دعيني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناسَ شرّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسبٌ وخير
ويقصيه النديُّ وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
ويلفى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير[1]

وله شعر يحث فيه الناس على السير في البلاد ، التماساً للرزق ، لأن من لم يطلب معاشاً لنفسه ، وقعد في داره دون أن يعمل شكا الفقر ، وصار كلاًّ على غيره ، حتى على ذوي قرباه ، فيقول :

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه ... شكا الفقر ، أو لام الصديق فأكثرا
وصار على الأدنين كلاًّ ، وأوشكت ... صلات القربى له أن تنكّرا
وما طالب الحاجات ، من كل جهة ... من الناس إلا من أجدَّ وشمّرا
فسر في بلاد الله ، والتمس الغنىّ ... تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا[2]

ومن شعره في المال والورثة قوله :

متى ما يجيء يوماً الى المال وارثي ... يجد جمعَ كف غير ملأى ولا صفر
يجد فرساً مثل القناة وصارماً ... حُساماً إذا ما هزّ لم يرض بالهبر[3]

ويقول في شعر آخر :

أليس ورائي ان أدبّ على العصا ... فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي
رهينة قعر البيتِ كل عشيّةٍ ... يطيف بي الولدان أهوج كالرأل

يعني : أليس ورائي إن سالمت الناس ، وتركت مخاطر التصعلك ، أن يلحقني الكبر فأهون ويضجر مني أهلي[4] . فهو يعتذر بذلك عن التصعلك واتخاذه الصعلكة حرفة له .

---

١ ديوانه (٩١ وما بعدها) ، البيان والتبيين (١/٢٣٤) ، وقد روي برواية تختلف عن رواية الديوان .
٢ ديوانه (٨٩) .
٣ كتاب العصا (٢٠٦) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الثانية) .
٤ الحيوان (٤/٣٥٦) .

وقد زعم ان (عبدالله بن جعفر بن أبي طالب) ، « قال لمعلم ولده : لا تُروّهم قصيدة عروة التي يقول فيها :

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهمُ الفقير

ويقول : هذا يدعوهم الى الاغتراب عن أوطانهم »[1] .

وهو يرى ان الموت خير للفتى من حياته فقيراً . وان الأقارب اذا ضنوا عليه ولم يساعدوه ، فعليه بالرحيل عنهم ، والناس الفجاج ، فإنها عريضة ، اذا ضاقت عليه السبل . وهو لا يترك اخوانه أبداً ما عاش ، كما ان الانسان لا يتمكن من ترك شرب الماء :

إذا المرء لم يبعث سَواماً ولم يرح عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته فقيراً ، ومن مولى تدب عقاربه
وسائلةٍ : أين الرحيل ؟ وسائلٍ ومن يسأل الصعلوك : أين مذاهبه
مذاهبه أن الفجــاج عريضةٌ إذا ضنّ عنه ، بالفعالِ ، أقاربه
فلا أترك الإخوان ما عشتُ للردى كما أنه لا يترك الماءَ شاربه[2]

وهو يحث على المخاطرة بالنفس ، فإن القعود مع العيال قبيح ، حثّ عليها في أبيات نسبت اليه ، وقيل انها ليست له ، بل هي للنمر بن تولب ، هذا نصها :

قالت تماضر ، إذ رأت مــالي خوى وجفا الأقارب ، فالفؤادُ قريح
مــالي رأيتك في النديّ منكّساً وصبا ، كأنك في النديّ نطيح
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة ان القعود مع العيال قبيح
المال فيــه مهابةٌ وتجلــةٌ والفقر فيــه مذلة وفضوح[3]

والصعلوك الخامل ، القعود الذي يعين نساء الحي ، ولا يستعمل سيفه للحصول على رزقه ، هو خليق أن يكون ممن يهان ويزدرى ، والصعلوك العامل النشط ،

---

١ ديوانه (٣) .
٢ ديوانه (٢٩) .
٣ ديوانه (٤٣) .

هو الرجل الذي يستحق الحياة ، ويصلح أن يكون انموذجاً للرجال ، صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور ، مطلاً على أعدائه ، يهابونه ولا يستطيعون الاقتراب منه ، ان لقي منيته لقيها حميداً ، وان عاش واستغنى فنعمة كبرى ، ينفق منها على من يحتاج اليه من الناس[1] .

وتراه يقول في أبيات أخرى :

إذا آذاك مالك ، فامتهنه لجاديه ، وإن قرع المراحُ
وإن أخنى عليك ، فلم تجده فنبت الأرضِ والماء القراحُ
فرغم العيش إلفُ فناء قومٍ وإن آسوك ، والموت الرواح[2]

ومعناها : لا تبخل بمالك ، ولا تحرص عليه ، أعطِ منه السائل والمحروم والمحتاج ، ولا تخشَ الفقر ، فإن أخنى عليك ، وقلّ مالك ، وتركك الأصحاب فلا تيأس ولا تخنع لأحد ، ولا تجزع ، ففي الأرض رزق لكل أحد ، ومتسع لكل نفس ، وإن كان ذلك نبات الأرض وماؤها ، ولا تهن نفسك ، وتذل كرامتك ، فتعيش على موائد غيرك ، من اللؤماء الحقراء ، فأكلك منهم ، هو الموت الرواح ، بل هو شر من الموت . فلا تقرب موائد أصحاب المنة ، وإن آسوك وساعدوك ، فمؤاساتهم كاذبة ، عن مظاهر ونفاق .

وفي أبيات شعر ، يذكر (عروة) (أصحاب الكنيف) والتواءهم عليه ، وكيف تمردوا عليه ، مع فضله عليهم ، وإشراكه لهم في كل ما كان يكسبه ويغنمه ، فيقول :

ألا إنّ أصحاب الكنيف وجدتهم كما الناس لما أخصبوا وتموّلوا
وإني لمدفوعٌ إليّ ولاؤهم بماوان إذ نمشي ، وإذ نتملل
وإذ ما يريح الحيَّ هرماء جونةٌ ينوس عليها رحلُها ما يحلل
موقعة الصفقين ، حدباء ، شارف تقيد أحياناً ، لديهم وترحل
عليها من الولدانِ ما قد رأيتم وتمشي بجنبيها أرامل عيل

---

١ ديوان عروة (٧٨ وما بعدها) .
٢ ديوانه (٤٢) .

وقلت لها يا أم بيضاء ، فتية ٌ طعامـهم ُ ، من القدور ، المعحر
مضيغ من النيب المسان ، ومُسخن من الماء نعلوه بآخر من عل ُ
بدعومة ما إن تكاد ترى بها من الظمأ ، الكوم َ الجلاد تنول ُ
تنكر آيات ُ البـلاد لمـالك وأيقن َ أن لا شيء فيها يقُول ُ [1]

وهي أبيات ، تعبر عن مرارة نفسه ، وعن ألمه مما لاقاه من أصحاب الكنيف ، مع افضاله عليهم ، وتقديمه لهم على نفسه ، وهو يواسي نفسه فيها ، فيقول انهم ناس ، ومن شأن الناس أنهم اذا اخصبوا وتموّلوا وتحسنت أحوالهم ، تنكروا لمن كان صاحب الفضل عليهم ، وتجاهلوا كل ما قام به من صنيع حسن نحوهم . أخرجتهم وأجسامهم هزال من شدة الجهـد ، لا يقدرون على المشي من شدة الضعف والجوع ، وقمت بأمرهم ، حتى اذا قووا ، ودنوا من بلادهم وعشائرهم ، وأقبلت أقسم فيهم ما غنمته من إبـل ، فأعطيتهم بالتساوي ، وأخذت لنفسي نصيب أحدهم ، تنكروا لي وصاروا كالأباعد ، ليس لهم شكر ، خاصموه وعارضوه. وكان من شأنهم : انه خرج مع صعاليكه يبحثون عن غنائم ، حتى نزل أرض (بني القين) ، فأقام مع أصحابه يوماً عند موضع ماء ، بانتظار مجيء الرعـاة لاسقاء إبلهم ، ثم ورد عليهم فصيل ، فقالوا : دعنا فلنأخذه ، فلنأكل منه يوماً أو يومين ، فقال : إنكم إذن تنفرون أهله ، وان بعده إبلاً . فتركوه ثم ندموا على تركه ، وجعلوا يلومون عروة على الجوع الذي جهدهم . ثم وردت إبـل بعده بخمس ، فيها ظعينة ورجل ، والإبل مائة ، فخرج (عروة) ورمى صاحبها في ظهره بسهم ، فخرّ ميتاً ، واستـاق عروة الإبل والظعينة [2] . وأتى بالإبل الكنيف فجعل يحلبها لهم ، ثم حملهم حتى اذا دنوا من بلادهم وعشائرهم ، أقبل يقسمها فيهم ، وأخذ مثل نصيب أحدهم ، واستخلص المرأة لنفسه ، فقالوا : لا والله لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيباً فـمن شاء أخذها من سهمه ، فجعل عروة يهم أن يحمل عليهم فيقتلهم وينزع ما معهم ، ثم يتـذكر صنيعه بهم ، وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان صنع ، ففكر طويلاً ثم أجـابهم الى أن يردّ عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليهـا امرأته ، فأبوا إلا أن يجعلوا الراحلة لهم ،

---

١ ديوانه (١١٩ وما بعدها) .
٢ ديوانه (١١٣ وما بعدها) .

فانتدب رجل منهم فجعل الراحلة من نصيبه وأفقرها عروة، أي منحها إياه منيحة اذا استغنى عنها ردّها ؛ فقال عروة يذكر أصحاب الكنيف والتواءهم عليه تلك الأبيات المتقدمة[1] .

فهو في الأبيات المتقدمة يذكر أن الإنسان ذليل كسير ما دام فقيراً ، يتقرب الى القوي ويتبصبص له ، ويتظاهر بحبه واخلاصه له ، فإذا نال حاجته ، أو اغتنى تبطر على من كان محتاجاً اليه ، وتعاظم عليه ، ونال منه .

وقد عرف (عروة) بـ (أبي الصعاليك) ، قيل ان الناس كانوا اذا أصابتهم السنة أتوه ، فجلسوا أمام بيته حتى اذا بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا » . فيخرج ليغزو بهم[2] . وقد كان يعدّ صعاليكه (عياله)[3] ، وكان يرعاهم ويحدب عليهم حدب الوالد على عياله ، ويخرج بالقوي منهم للغزو ، بحثاً عن غنيمة ينالها لإشباع أتباعه الجياع الصعاليك،بمال غني جمع غناه بالعقوق وبالبخل ، لأنه لا يرضى أن يرى اخواناً له يهلكون من الجوع ، ثم لا يجد ما يقدمه لهم لسد رمقهم[4] ، وهو يطوف لذلك في البلاد باحثاً عن غني ينفق منه على المعوزين وذوي الحاجات . وشر الناس في هذه الدنيا الفقير ، يباعده القريب لفقره ، وتزدريه حليلته ، ولا يحترمه أحد ؛ بينما يعظم الغني ويحترم ، لا لسبب إلا لماله ولغناه ، ذنبه قليل في نظر الناس ، لأنه غني ، وللغني رب غفور :

ذريني للغنى أسعى ، فإني — رأيت الناس شرهم الفقيرُ
وأدناهم ، وأهونهم عليهم — وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب ، وتزدريه — حليلته ، ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى ، وله جلال — يكادُ فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جمّ — ولكن للغني ربّ غفور[5]

---

1 ديوانه (١١٨) ، الاغاني (٣/٧٩ وما بعدها) .
2 الاغاني (٣/٨١) .
3 ديوان عروة (٩٩) ، حماسة أبي تمام (٢/٧) ، الشعراء الصعاليك (٣٢٢) .
4 أيهلك معتم وزيد ولم أقم — على ندب يوما ولي نفس مخطر
ديوان عروة (٨٣) ، الشعراء الصعاليك (٣٢٥) .
5 العقد الفريد (٣/٢٩) ، عيون الاخبار (١/٢٤١ وما بعدها) ، البخلاء (١٨٣ ، ٣٩١) ، البيان والتبيين (١/٢٣٤) ، وتختلف نصوص هذه القصيدة باختلاف الموارد .

وفي قصيدته :

لحا الله صعلوكاً اذا جن ليله ... مصافي المشاش آلفاً كل مجزر
يعدّ الغنى من دهره كل ليلة ... أصاب قراها من صديق ميسر
ينــام عشاءً ثم يصبح طاوياً ... يحتُّ الحصى عن جنبه المتعفر
قليــل التماس الزاد إلا لنفسه ... اذا هو أمسى كالعريش المجوّر
يُعينُ نساء الحيّ ما يستعِنَّه ... فيمسي طليحاً كالبعـير المحسر
ولكن صعلوكاً صحيفة وجهـه ... كضوء شهاب القــابس المتنور
مُطِلاً على أعدائه يزجرونــه ... بساحتهــم زجر المنيح المُشهر
فإن بَعَدُوا لا يأمنون اقترابــه ... تشوّف أهــل الغائب المتنظر
فذلك إن يلق المنيّة يلقهــا ... حميداً وان يستغن يوماً فأجدر[1]

«معان سامية ، تعبر عن نفسية انسانية ، وعن عطف على الفقير والمحتاج والنساء ، وصف فيها فضيلة الفقير الحر الباسل وذم الذي يستأجر شغله »[2] .

وفي شعر (عروة) اشارة الى الموت ، فهو يرى ان الحياة أجل ، وان الانسان غير خالد في هذه الدنيا ، حياته قصيرة ، ثم يكون أحاديث للناس . اذا جاء أجله خرجت منه هامة تعلو كل نشز :

أحاديث تبقى،والفتى غيرُ خالدٍ ... اذا هو أمسى هامة فوق صيّرِ
تجاوب أحجار الكناسِ ، وتشتكيَ ... الى كل معروف رأته ، ومنكرِ

ثم تجاوب هذه الهامة أحجار الكناس،وتشتكي الى كل معروف تراه ومنكر . أي تصوت في كل حالٍ اذا رأت من تعرف ومن تنكر[3] .

والموت ملازم للانسان ، وهو ثغر كل ثنيّة ، ولا مفر منه :

وأن المنايا ثغــر كل ثنيّة ... فهل ذاك، عما يبتغي القوم محصر
وغبراء مخشى رداها مخوفةٍ ... أخوها ، بأسباب المنايا مغرر[4]

---

١ الخزانة (١٩٦/٤) ، (بولاق) .
٢ كارلو نالينو (٧٩) .
٣ ديوانه (٦٦ وما بعدها) .
٤ ديوانه (٧٧) .

وقد نسبت له قصيده مطلعها :

لحا الله صعلوكاً مناه وهمه ... من الدهر أن يلقى لبوساً ومطعما
ينام الضحى حتى إذا الليل جنه ... تبيت مسلوب الفؤاد مورّما
ولكنّ صعلوكاً يساور همّه ... ويمضي على الهيجاء ليثاً مصمما
فذلك أن يلقى الكريهة يلقها ... حميداً وان يستغن يوماً فربما

وقد ذهب بعضهم الى أن هذه القصيدة لحاتم الطائي ، لأن قصيدة عروة رائية ، وليست هذه ، ولحاتم قصيدة على هذا الروي ، وليس فيها هذه الأبيات، وفيها ما يشبهها ، وهو :

وليل بهيم قد تسربلت هوله ... إذا الليل بالنكس الضعيف تجهما
ولن يكسب الصعلوك مالاً ولا غنى ... إذا هو لم يركب من الأمر معظما
يرى الخمص تعذيباً وان يلق شبعة ... يبت قلبه من قلة الهمّ مبهما
ولكن صعلوكاً يساور همه ... ويمضي على الأيام والدهر مقدما
يرى رمحه ونبله ومجنه ... وذا شطب بين المهذة مخذما
واحناء سرج قاتر ولجامه ... معداً لدى الهيجاء طرفاً مسوما
فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه ... وان يحي لا يقعد ضعيفاً ملوّما[1]

وفي كتاب (ذيل الأمالي والنوادر) للقالي ، أبيات على هذا النمط غير معزوة لقائلها ، أوردها على أثر تحدثه عن (الشيظم بن الحارث الغساني) ، وكان قد قتل رجلاً من قومه ، فخافهم ، فلحق بالحيرة متنكراً ، وكان من أهل بيت الملك ، فكان يتكفف الناس نهاره ويأوي الى خربة من خراب الحيرة ، فبينا هو ذات يوم في تطوافه إذ سمع قائلاً يقول :

لحا الله صعلوكاً اذا نال مذقة ... توسد إحدى ساعديه فهوما
مقيماً بدار الهون غير مُناكرٍ ... اذا ضيم أغضى جفنه ثم برشما
يلوذ بأقراء المثاريب طامعاً ... يرى المنع والتعبيس من حيث يمما
يضن بنفسٍ كدر البؤس عيشها ... وجودٌ بها لو صانها كان أحزما

---

١ الخزانة (٤/١٩٤ وما بعدها) .

فذاك الذي إن عاش عاش بذلة وإن مات لم يشهد له الناس مأتما
بأرضك فاعرك جلد جنبك انني رأيت غريب القوم لحماً موضّما

فهي أبيات في المعاني المتقدمة ، لم يعرف اسم صاحبها [1] .

وهو يزجر امرأته سلمى لأنها تلومه على غاراته وغزواته ، لما تخشاه عليه من الوقوع في المهالك ، ومن ملاقاته حتفه . ويقول لها : إنه إنما يجازف ويخاطر في سبيلها ، حتى يغنيها فلا تذل بعده أو تستجدي أحداً ، ثم ان عليه حق الوفاء لأقاربه وللضعفاء ولإخوانه الصعاليك الذين يلوذون به ، فعليه مساعدتهم ، وهو لا يتمكن من تقديم المساعدات لهم ، إلا بهذه الغارات[2] .

وروي أن (عروة) كان يتردد على (بني النضير) فيستقرضهم إذا احتاج ويبيع منهم إذا غنم ، فرأوا عنده (سلمى) فأعجبتهم ، فسألوه أن يبيعها منهم فأبى ، فسقوه الخمر واحتالوا عليه حتى ابتاعوها منه وأشهدوا عليه ، وفي ذلك يقول :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور

وروي أيضاً أن قومها افتدوها منه وكان يظن أنها لا تختار عليه أحداً ولا تفارقه ، فاختارت قومها فندم وكان له بنون منها ، ثم تزوجها بعده رجل من في النضير . وفيها يقول عروة :

أرقت وصحبتي بمضيق عمق لبرق في تهامة مستطير

وهي قصيدة أشار فيها الى (سلمى) ، ومفارقتها له ، عند (بني النضير)، حيث يقول :

وآخر معهد من أم وهب معرسنا فويق بني النضير

وفي هذه القصيدة البيت المتقدم ، الذي يشير الى أنهم سقوه الخمر ، واحتالوا عليه ، حتى ابتاعوها منه [3] .

---

١ ذيل الامالي (١٧٩) ، الخزانة (٤/١٩٥) .
٢ الاصمعيات (٣٥) .
٣ الروض الانف (٢/١٨٠ وما بعدها) .

وقد أشار (عروة) في شعر ينسب اليه الى (التعشير) ، وهو أن ينهق الانسان عشر مرات اذا أراد دخول (خيبر) لكي لا تصيبه الحمى . فقال :

وقالوا : أحبُ وانهق ، لا تضيرك خيبر   وذلك من دين اليهود وُلوع
لعمري ، لئن عشرت ، من خشية الردى   نهاقَ الحمير انني لجزوع[1]

وقد رفض عروة ذلك ، وسخر من هذه الخرافة .

قال (الجاحظ) : « وكانوا اذا دخل أحدهم قرية خاف من جنّ أهلها ، ومن وباء الحاضرة ، أشد الخوف ، إلا أن يقف على باب القرية فيعشر كما يعشر الحمار في نهيقه ، ويعلق عليه كعب أرنب . ولذلك قال قائلهم :

ولا ينفع التعشير في جنب جرمة   ولا دعدع يغني ولا كعب أرنب »

« وقد قال عروة بن الورد ، في التعشير ، حين دخل المدينة فقيل له : إن لم تعشر هلكت :

لعمري لئن عشرتُ من خيفة الردى   نهاقُ الحمير انني لجزوع »[2]

ولعروة شعر في يوم (ساحوق) ، وهو يوم لبني ذبيان على (بني عامر) ، إذ يقول :

ونحن صبحنا عامراً في ديارها   عُلالة أرماح وعضباً مُذكّرا
بكل رقيق الشفرتين مهنـد   ولَدْنٍ من الخَطي قد طُرّ أسمرا
عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم   ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا
يشدّ الحليمُ منهم عَقْدَ حبله   ألا إنما يأتي الذي كان حُذّرا

أي انهم كانوا ذوي غدر بين ، لو أنهم جاهدوا في الحرب وقتلوا ، أما الآن فلا عذر لهم بين الرجال في خنقهم أنفسهم . وكان (الحكم بن الطفيل) وأصحابه قد خنقوا أنفسهم ، بشد الحبل حول العنق[3] ، وذلك تحت شجرة بالمروراة ،

---

١ ديوانه (٩٥) ، الحيوان (٦/٣٥٩) .
٢ الحيوان (٦/٣٥٩) .
٣ الحيوان (٢/٢٧٣) ، الخزانة (٤/٢١٨) ، العقد الفريد (٢/٣١٨) .

خشية الوقوع في الأسر . و (الحكم بن الطفيل) هو أخو (عامر بن الطفيل)، وقد عرف يوم (المروراة) بيوم (التخانق)[1] .

وقد عدّت قصيدته التي تبدأ بـ :

أقلي عليّ اللوم يا ابنة منذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

من القصائد (المنتقيات)[2] .

وأما شعر (عروة) ، فقد عد أشعر شعر (بني عبس) في رأي أبناء قبيلته. روي ان (عمر بن الخطاب) « قال للحطيئة : كم كنتم في حربكم ؟ قال : كنا ألفَ حازمٍ . قال : وكيف ؟ قال : فينا قيس بن زهير ، وكان حازماً وكنا لا نعصيه ، وكنا نقدم باقدام عنترة ، ونأتم بشعر عروة بن الورد ، وننقاد لأمر الربيع بن زياد »[3] :

ويرى (بروكلمن) ، انه كان بدوياً قحاً ، رويت له أشعار أكثر مما روي لتأبط شراً والشنفرى ، لكنه كان دونهما في تصوير حياة الجاهلية[4] .

ولعروة ديوان برواية (ابن السكيت) (٢٤٣ هـ) (٢٤٤ هـ) ، طبع جملة طبعات. وقد ترجم الى الألمانية والافرنسية[5] ، وقد جمع (الأصمعي) شعره في ديوان لم يصل الينا[6] .

وفي شعر عروة شعر مصنوع ، وضع عليه ، وفيه كما رأينا ما ليس له،وقد نسبه بعض العلماء الى غيره ، ونجد في شعره شعراً يمثل طبيعة مجتمع حضري غلبت عليه التفرقة الطبقية ، فيه غنى حضر ، وفقر أهل مدن ، يظهر أنه وضع على لسانه حكاية عن وضع الناس في ذلك الوقت ، خشيه ناظمه من تعرض الحكام

---

١ الخزانة (٢١٦/٤ وما بعدها) .
٢ الاغاني (١٩٠/٢) ، الشعر والشعراء (٤٢٥) ، الجمهرة . (١١٤) ، زيدان ، تاريخ الادب العربي (١٦٤/١) .
٣ ديوان عروة (٣) .
٤ بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٩/١) .
٥ راجع التفاصيل في بروكلمن ، تاريخ الادب العربي (١٠٩/١) ، زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (١٦٤/١) .
٦ الشعراء الصعاليك (١٥٨) .

أو الأغنياء له بسوء ، فيما لو نشره باسمه ، فآثر نظمه باسم (عروة) .

و (الشنفرى) ، وهو (ثابت بن أوس) الأزدي ، وقيل بل (الشنفرى) اسمه لا لقبه ، وقيل : بل هو : (عمرو بن مالك) الأزدي ، وقيل (عمرو ابن براق) ، وقيل غير ذلك ، من (بني الأواس بن الحجر بن الهنيء بن الأزد)[1] ، من اليمانية في عرف أهل النسب . وهو من الصعاليك ومن العدائين. وكان من المرافقين للشاعر (تأبط شراً) في كثير من غزواته . وكان أكبر منه سناً ، وتوفي قبله . وذكر أنه حلف يميناً أن يقتل من (بني سلامان) مائة رجل فقتل تسعة وتسعين ، فأمسك به رجل عدّاء ، هو (أسيد بن جابر) وهو عداء من العدائين وقتله . فمرّ به رجل من بني سلامان فركل جمجمته ، فدخلت شظية منها في رجله فمات . فوفى الشنفرى بقسمه ، وأتم العدد وهو ميت[2] . ويلاحظ أن أهل الأخبار يزعمون أن (عمرو بن هند) كان قد حلف يميناً أن يقتل من (بني دارم) مائة رجل ، وأن يلقي بهم في النار ، فسار اليهم فقتل تسعة وتسعين وأحرقهم بالنار ، وبقي عليه أن يبر بقسمه بقتل واحد آخر منهم حتى يكمل العدد ، فمر رجل من البراجم شمّ رائحة حريق القتلى ، فحسبه قتار الشواء ، فمال اليه ، فلما رآه (عمرو) ، قال له : ممن أنت ؟ قال : رجل من البراجم ، فقال : ان الشقي وافد البراجم ، وأمر فقتل وألقي في النار . فبرت به يمينه[3] . وقد يكون للقصتين ولقصص آخر من هذا النوع علاقة بطقوس أو بأساطير جاهلية قديمة ، تجعل الأبطال ، ينذرون نذوراً تختلف عن نذور سائر الناس ، هي قتل مائة نفس قربى الى الآلهة ، بدلاً من تقديم الضحايا من الحيوانات .

وكان (الشنفرى) يحقد على (بني سلامان) حقداً شديداً ، وسبب حقده عليهم ، انه كان قد وقع أسيراً وهو صبي في (بني شبابة بن فهم) ، فانتمى

---

١ الخزانة (٢/١٦ وما بعدها) ، البيان والتبيين (٣/٢٢٤) ، المفضليات (١/١٠٦ وما بعدها) ، مجالس ثعلب (٤٢٦) ، الحيوان (٣/١٠٨) ، (٦/٢٤٤) ، أمالي القالي (١/١٥٧) ، رسالة الغفران (٣٥١ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (١/٢٥ وما بعدها) ، تاج العروس (٣/٣٠٨ ، ٣١٨) ، (شنفر) ، (الشنيفرة) ، الاغاني (٢١/٨٧) ، الخزانة (٢/١٤) « بولاق » ، ذيل الامالي (٢٠٨ وما بعدها) ، زيدان ، تاريخ آداب (١/١٦١) .

٣ الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٢٥١) .

اليهم ، ثم وقع أحد (بني شبابـة) أسيراً في (بني سلامان بن مفرج) من الأزد ، ففدى (بنو شبابة) الأسير به . فصار (الشنفرى) فيهم ، وحسب منهم ، ثم انه أراد الزواج من ابنة رجل منهم ، فرده والدها رداً عنيفاً ، أثر فيه ، فعاد الى (بني فهم) ، وأخذ يغير على (بني سلامان) للإهانـة التي لحقته من الرجل ، والتي كانت سبب صعلكته[1] .

ويروى ان الشنفرى أغار مع (تأبط شراً) و (عمـرو بن براق) عـلى (بجيلة) ، فوجدوا بجيلة قد أقعدوا لهم على الماء رصداً ، وقد علم (تأبط شراً) انهم يريدونه ، فتآمر مع الشنفرى وعمرو بن براق ، عـلى انقاذه إن وقـع في أيديهم ، فلما جاء الماء قبضوا عليه ، فعمد الشنفرى وابن براق الى حيلة كانوا قد اتفقوا عليها لغش بجيلة ، فأنقذوه ، وهربوا ساخرين من بجيلة التي خدعت بها[2] . وللعرب قصص ترويه عن بساطة (بجيلة) ، وسرعة انخداعها بالحيل .

وهو كما سبق أن ذكرت ، أحد أغربة العرب ، ويظهر ان الملامح الافريقية كانت بارزة عليه ، بدليـل تلقيبـه بالشنفرى ، و (الشنفرى) الغليظ الشفاه ، ويظهر انه أخذ ملامحه من أمه السوداء . وأخباره متناقضة متضاربة ، يظهر منها ان أباه قد قتله قاتل من (الأزد) ، قتله (حرام بن جابر) ، وكان قـد قدم (منى) فقيل له : هذا قاتل أبيك ، فشد عليه فقتله[3] . فحقد على قتلة أبيه ، وقرر الانتقام منهم شر انتقام ، وأن لا يكف عنهم ما دام حياً ، فكان يكثر من الغارة عليهم ، يغير مع من معه من صعاليك ، وقد يغير عليهم وحده[4] .

ويروى في قتله ، انه قتل من (بني سلامان بن مفرج) تسعة وتسعين رجلاً ، فأقعدت له رجالاً يرصدونه ، فلما دنا من ماء ليشرب ، قبض عليه رجلان من (بني البقوم) من الأزد ، فقبضا عليه ، وأصبحا بـه في (بني سلامان) . فربطوه الى شجرة ، فقالوا : قف أنشدنا ، فقـال الإنشاد على حين المسرة ، ثم قال :

---

١ بروكلمن (١٠٥/١) ، الاغاني (١٣٤/٢١) .
٢ الخزانة (١٧/٢) .
٣ الاغاني (١٣٧/٢١) ، الخزانة (١٦/٢) .
٤ الاغاني (١٣٥/٢١) .

فــلا تدفنوني إن دفني محرمٌ عليكم ولكن خامري أم عــامر
إذا حملوا رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري
هنالك لا أرجو حياة تسرني سمــير الليالي مُبسلاً بالجرائر[1]

وذكر (المرتضى) أن هناك من نسب هذا الشعر الى تأبط شراً[2] . وقد نسبه (الجاحظ) الى (تأبط شراً) ، إذ قال : « وقال تأبط شراً :

فلا تقبروني إن قبري محرمٌ عليكم ولكن خــامري أم عامر
إذا ضربوا رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عنــد الملتقى ثم سائري
هنالك لا أبغي حياةً تسرني سمير الليالي مبسلاً بالجرائر »[3]

ويختلف نص هذا الشعر بعض الاختلاف عن النصوص الأخرى[4] .

ويذكر أنه لمّا وقع بأيدي أعدائه ، تفننوا في قتله ، وأروه أصناف العذاب . قطعوا يده ، وصاروا يسخرون منه ، ويسألونه أين يدفنونه . فرد عليهم بمقطوعة رائعة ، كما رثا يده بأرجوزة لما قطعوها ، وقد ذكر أنه طلب منهم ألا يدفن، وإنما يلقى بجسده الى الضباع[5] . وروي أن رجلاً من (بني سلامان) رماه بسهم في عينه فقتله ، فقال (جزء بن الحارث) في قتله :

لعمرك للساعي أسيدُ بـن جابر أحق بها منكم بني عقب الكلب[6]

---

١ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (١/٢٥) ، (دار الثقافة) ،
ولا تقبرونــي ان قبــري محــرم عليــكم ولكن أبشــري أم عامــر
اذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عند الملتقى ثم سائــرى
هنالك لا أرجــو حيــاة تسرنــي سجيس الليالي مبسلا بالجرائــر
حماسة أبي تمام (٢/٢٤ وما بعدها بولاق) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، الخزانة (٢/١٨) ، امالي المرتضى (٢/٧٢ وما بعدها) ، (اذا احتملت رأسي) ، أسماء المغتالين (٢٣٢) ، (المجموعة السادسة) .
٢ أمالي المرتضى (٢/٧٢ وما بعدها) .
٣ الحيوان (٦/٤٥٠) .
٤ راجع العقد الفريد (١/٥٣) ، (٤/٢١٩) ، الحماسة (١/١٨٨) ، المخصص (٣/٢٥٨) .
٥ الشعراء الصعاليك (٣٣٥) .
٦ أسماء المغتالين (المجموعة السادسة) ، (ص ٢٣٢) .

وقد ضاع أكثر شعر (الشنفرى) . وقد طبعت لاميته ، وللعلماء شروح وبحوث عليها . وهي في الفخر والحماسة ، ولم يعرف كثير من قدماء علماء الشعر القديم هذه اللامية ، ومن بينهم مؤلف كتاب (الأغاني) . وقد تعرض (القالي) لموضوع (اللامية) ، فقال : « حدثني أبو بكر بن دريد : ان القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التي أولها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني الى قوم سواكم لأميل

لـه ، وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول ، فكان أقدر الناس على قافية »[1] . ويعود الضمير (له) الى خلف الأحمر . أي ان القصيدة هي من صنعه وعمله . وعدة القصيدة ثمانية وستون بيتاً . وممن شرحها : الخطيب التبريزي، والزمخشري ، وابن الشجرى ، وابن اكرم وغيرهم[2] . وقد ورد في (تأريخ الآداب العربية) لكارلو نالينو : « أما الشنفرى الأزدي فصاحب اللامية المشهورة التي يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحشة عيشه في البراري كأنه لم يعاشر إلا السباع . وهي قصيدة غاية في الجمال تنطق بلسان حال الشاعر وان كان بعض النحويين يزعمون انها من مصنوعات حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ »[3] . وفي قوله: « وان كان بعض النحويين يزعمون انها من مصنوعات حماد الراوية » وهم لا أدري أوقع منه ، أم من الترجمة ، لأن غالبية العلماء تنسبها الى خلف الأحمر، لا الى حماد . كما ان وفاته كانت سنة (١٥٦ هـ)[4] .

وقد ذهب بعض المستشرقين الذين بحثوا أمر هذه القصيدة ، الى أن القصائد التي نحلها (خلف الأحمر) احتفظت دائماً بعمود الشعر القديم وطابعه ، أما هذه القصيدة ، فلها طابع خاص يجعل من الصعب تصور صدورها من (خلف الأحمر)[5] .

---

١ الامالي (١/١٥٦ وما بعدها) ، الاغاني (٢١/٨٧) ، الخزانة (٢/١٦) ، زيدان، تأريخ آداب اللغة العربية (١/١٦١ وما بعدها) .

٢ الخزانة (٢/١٥) ، (بولاق) ، اللاميتان : لامية العرب ولامية العجم ، من شروح الزمخشري والصفدي ، علق عليهما واعدهما : عبد المعين الملوحي ، دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي ، رقم ١٣ .

٣ (ص ٧٣) .

٤ الفهرست (١٤٠) .

٥ بروكلمن (١/١٠٦ وما بعدها) .

وذهب بعض آخر الى جواز كونها من نظم (الشنفرى)[1]،وذكر أنها من مصنوعات (جمّاد) الراوية[2] .

وفي (المفضليات) قصيدة طويلة له ، هي قصيدة تائية ، ومقطعات ، وفي قصيدته وصف لحياته ولبعض غاراته،وكيف كان يقود صعاليكه في طرق وعرة، وهم على أرجلهم ، ثم يصف حاله ، فهي قصيدة فيها بعض تأريخ هذا الشاعر وقصص غزوه وتعامله مع رفاقه[3] .

وقد طبع الأستاذ (عبد العزيز) الميمـــني ، ديوان الشنفرى في (الطرائف الأدبية)[4] ، وتوجد أشعاره أيضاً في (ديوان الهذليين)[5] . وقد كان عند العيني ديوان للشنفرى في جملة دواوين عديدة كانت في حوزته[6] . وقد كتب عدد من المستشرقين عن الشنفرى وشعره بمختلف اللغات[7] .

وأما (تأبط شراً) ، وهو (ثابت بن جابر بن سفيان) ، وقيل (ثابت بن عمسل) فهو من فهم ، وكان من أغربة العرب ، لأن أمه أمة سوداء . وكان من العدائين المعروفين عند العرب . وله أخبـــار كثيرة في ذلك ، وله مغامرات تحمل طابع القصص والأساطير . وله قصيدة في وصف (الغول) ذكر فيها كيف طير بسيفه قحف ابنة الجن[8] . وكان أحد رآبيل العرب . وذكر علماء اللغـة ان الرئبال هو الذي ولدته أمه وحده[9] ، وبه سميت رآبيل العرب،ومن السباع الكثير اللحم الحديث السن ، والذئب الخبيث ، وترأبلوا : تلصصوا أو أغاروا على الناس

---

١ بروكلمن (١/١٠٧) .
٢ تأريخ الآداب العربية (٧٣) ، الاغاني (١٣/٥) .
٣ العصر الجاهلي (٣٨٠ وما بعدها) .
٤ بروكلمن (١/١٠٥ ، ١٠٩) ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٧ م.
٥ الشعراء الصعاليك (١٥٩ وما بعدها) .
٦ العيني ، كتاب المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية (٤/٥٩٦) .
٧ راجع بروكلمن (١/١٠٧) .
٨ الشعر والشعراء (١٧٤) ، الاغـــاني (١٨/٢٠٩) « بولاق » ، خزانة الادب (١/٦٦) ، بروكلمن (١/١٠٤ وما بعدها) ، شرح شواهد المغنى ، للسيوطي (١٩) ، المفضليات (٢٧ وما بعدها) ، الشعر والشعراء (١/٢٣٠ وما بعدها) ، (دار الثقافة ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/١٠٤) .
٩ تاج العروس (٥/١٠٠) ، (أبط) ، السيوطي ، شرح شواهد المغني (١/٥٠ وما بعدها) ، (أحمد ظافر كوجان) .

وفعلوا فعل الأسد ، أو غزوا على أرجلهم وحدهم بلا والٍ عليهم[1] . وهذا المعنى هو أقرب المعاني وأقرب الى الصحة في تفسير (رآبيل العربِ) . فهم الصعاليك الذين نبحث عنهم .

ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، وأن أمه التي كانت أمة سوداء على أغلب الروايات ، أو أمة حرة في رواية ، تزوجت الشاعر (أبا كبير) الهذلي ، وهو من الصعاليك ، من صعاليك هذيل ، وأن أبناء قبيلته كانوا يعيرونـه بسواده ، مما ترك أثراً في نفسه ، فتصعلك ، وأخذ يرافق الصعالكة ، ومنهم صعلوك شهير آخر ، هو (الشنفرى) الذي رافقه في كثير من غزواته . وقـد نعت (تأبط شراً) بأنه كان شاعراً بئيساً ، يغزو على رجليه[2] .

ومما يروى من قصصه أنه كـان يشتار عسلاً من جبل ليس له غير طريق واحد ، فأخذت لحيان عليه ذلك الموضع ، وخيّروه النزول على حكمهم أو إلقاء نفسه من الموضع الذي ظنوا أنه لا يسلم . فصب العسل الذي معه على الصفا وشدّ صدره على الزق ثم لصق على العسل ، فلم يبرح يتزلق عليـه حتى نزل سالماً ، فنظم في ذلك قصيدة مطلعها :

إذا المرءُ لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مُدبر[3]

ولعلماء الشعر قصص في تفسير تسمية هذا الشاعر بـ (تأبـط شراً) ، فزعم بعض منهم أنه « إنما سمّي تأبط شراً لأنه أخذ سيفاً وخرج ، فقيل لأمـه أين هو ؟ قالت : لا أدري ، تأبط شراً وخرج . وقيل أخذ سكيناً تحت أبطه وخرج الى نادي قومه فوجأ بعضهم ، فقيل تأبط شراً . وزعم بعض آخر أن أم تأبط شراً قالت له يوماً : إن الغلمان يجنون لأهلهم الكمأة فهلا فعلت كفعلهم ، فأخذ جرابه ومضى فملأه أفاعي وأتى متأبطاً به ، فألقاه بين يديها فخرجت الأفاعي منه

---

١ تاج العروس (٣٣٣/٧) ، (ربل) ، الاشتقاق (١٦٢ ومـا بعدها) ، اللآلىء (١٥٨ وما بعدها) ، التيجان (٢٤٢ وما بعدها) ، أسماء المغتالين (٢١٥) ،

٢ الشعر والشعراء (٢٢٩/١) ، (دار الثقافة) ، الاغاني (٢١٥/١٨ وما بعدها) ، Baur, in ZDMG, X, 7, 17, ff.

٣ السيوطي ، شرح شواهد (٩٧٥/٢) ، الاغـاني (٢١٥/١٨) ، شرح ديوان الحماسة (٣٨/١) ، المحبر (١٩٧ وما بعدها) ، الخزانة (٣٥٧/٣) .

تسعى فولت هاربة . فقال لها نساء الحيّ : ما الذي كان ابنك متأبطاً له ؟ فقالت: تأبط شراً ! وقيل : إنه رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه ، فجعل يبول عليه طول طريقه ، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش ، فرمى به ، فإذا هو الغول . فقال له قومه : ما كنت متأبطاً يا ثابت ؟ قال : الغول . قالوا : لقد تأبطت شراً ، فسمي بذلك . وانه قال في ذلك :

تأبط شراً ثم راح أو اغتدى   يوائم غنماً أو يشيف على ذحل

وقيل سمّي بهذا البيت . قال رجل لتأبط شراً : بِمَ تغلب الرجال وأنت دميم ضئيل ؟ قال : باسمي ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شراً، فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت »[1] . وقيل إنما سمي (تأبط شراً) ، لأن أمه رأته وقد تأبط جفير سهام وأخذ قوساً ، فقالت له : هذا تأبط شراً ، أو تأبط سكيناً فأتى ناديهم فوجأ بعضهم ، فسمي به لذلك ، وكان لا يفارقه سيفه . قتلته هذيل في رواية ، وقالت أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان   بثابت بن جابر بن سنان

وكانت تسمى (ريطة) . وذكر أن أمه هي التي رثته . وقد ذكر في أشعار هذيل[2] .

وكان سبب قتله ، انه خرج غازياً في نفر من قومه ، إذ عرض لهم بيت من هذيل ، بين صدى جبل ، فأراد مهاجمته ، فمنعه من كان معه من مباغتته، لخروج ضبع اعتافوا منه ، فلم يبال بتشاؤمهم ، فلما قارب البيت رآه غلام ، فهرب الى الجبل ، فهجم تأبط شراً مع جماعته على البيت ، فقتلوا شيخاً وعجوزاً،

---

١ الاغاني (١٤٦/٢١) ، شرح حماسة أبي تمام (٧٥/١) ، السيوطي ، شرح شواهد (٥٢/١) .

٢ تاج العروس (١٠٠/٥) ، (أبط) قال مليح الهذلي :

ونحن قتلنا مقبلا غير مدبر   تابط ، ما ترهق بنا الحرب ترهق

اللسان (٢٥٤/٧) ، (أبط) .

ويل أم طرف قتلوا برخمان   بثامت بن جابر بن سنان

الشعر والشعراء (٢٢٩/١) ، (دار الثقافة) ، الاغاني (٢٠٩/١٨) ، (بولاق) ، المغتالين (٢١٥) ، الخزانة (٦٦/١) .

وحازوا جاريتين وإبلاً ، ثم أبصر تأبط شراً بالغلام ، فاتبعه ، فرماه الغلام بسهم أصاب قلبه ، وحمل على الغلام فقتله ، ثم مات هو من السهم ، وترك جثة ، فاحتملته هذيل ، وطرحته في غار يقال له غار (رخمان) . فرثته أخته (ريطة) بقولها :

نعم الفتى غادرتم برخمان ثابت بن جابر بن سفيان
قد يقتل القِرن ويَروي الندمان[1]

وفي بيت شعر ينسب الى تأبط شراً ، هو :

ولست أبيت الدهرَ إلا على فتى أسلّبه أو أذعر السرب أجمعا[2]

معنى يفيد انه كان يغـير على القادم والآيب ، يسلبه ويأخذ ما عنده ، لا يبالي بشيء إلا بحصوله على غنيمة السلب ، وهو ان قابل قافلة ، فلم يتمكن منها ، يكون قد رضي من فعله بما ألقاه من رعب وذعر في قلوب أصحابها ، ويكون قد اشتفى بذلك منها . فهو رجل منتقم ، يريد أن يفرج عما ولد في قلبه من غلّ ، بأية طريقة كانت ، غـلّ ، ولد فيـه ، من سواد لونه ، ومن ازدراء قومه له ، ومن فقره وسوء حاله في هذه الحياة ، وذلك فيما لو صح ان هـذا الشعر هو من قوله .

ونسب قوم من الرواة الى (تأبط شراً) قصيدة مطلعها :

ولقد سريتُ على الظلام بمغشمٍ جلد من الفتيان غير مهبل

وهي قصيدة نسبها غيرهم الى (أبي كبير) الهذلي ، ووضعوا حولها قصة في شرح السبب الذي حمل (أبا كبير) أو (تأبط شراً) على نظمها[3] .

قال (الجاحظ) في كتابه (الحيوان) : « وقال تأبط شراً – إن كان قالها – :

---

١ اسماء المغتالين (٢١٥ وما بعدها) .
٢ الاغاني (٢١٧/١٨) .
٣ الشعر والشعراء (٥٦٢/٢ وما بعدها) ، (الثقافة) .

شامس في القرّ حتى اذا ما ذكت الشعرى فبرد وظل
وله طعمان أريٌ وشريٌ وكلا الطعمين قد ذاق كل ،[1]

مما يدل على انه في شك من أمر نسبة هذه القصيدة اليه .

وأشعار (تأبط شراً) متناثرة في كتب الأدب . ولم يطبع له ديوان بعد . ومن شعره أبيات ، يذكر فيها أن (عذّالة) لامته حتى أكثرت من لومه ، فكادت تخرق جلده أي تخراق ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

يا من لعذّالة خذّالة نشبٍ خرقت باللوم جلدي أي تخراق
تقول: أهلكتَ مالاً لو ضننتَ به من ثوب عزٍّ ومن بزٍّ وأعلاق
سدّد خلالك من مال تجمعه حتى تلاقى ما كلّ امرىء لاق
عاذلتا انّ بعضَ اللوم معنفة وهل متاع وإن بقيتهُ باق[2]

وهذه هي مشكلة أولئك الصعاليك ، كانوا يخاطرون بحياتهم ، للحصول على مال ، فإذا حصلوا عليه ، ونجوا من تعقب الناس لهم ، أهلكوه . يتلفونه على ملذاتهم ، أو على أصدقائهم . وإذا بهم في حاجة الى مال ، وفي عسر وضيق .

ومن شعره قوله :

لَتَقرعنَّ عليّ السنّ من ندمٍ إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي[3]

وله شعر يصف فيه حاله ، بقوله :

قليل التشكّي للمهم يُصيبه كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالكِ
يظلّ بمَوماة ويمسي بغيرها جحيشاً ويَعْرَوْري ظهورَ المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي بمنخرق من شدة المتدارك
اذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالىءٌ من قلب شيحان فاتك

---

١ الحيوان (٦٨/٣ وما بعدها) .
٢ الشعر والشعراء (٢٣٠/١) ، (دار الثقافة) ، أبو تمام ديوان الحماسة (٣٨٢ وما بعدها) .
٣ الحيوان (٦٣/١) .

ويجعل عينيه ربيئة قلبه ... الى سلة من حدّ أخلق صائك
اذا هزّه في عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك[1]

وهي قصيدة مدح بها عمه (شمس بن مالك)[2] .

وقد شك (الجاحظ) في نسبة هذه القصيدة الى (تأبط شراً) ، إذ قال : « ومن هذا الباب قول تأبط شراً ، أو قول قائل فيه في كلمة له »[3] . وتنسب أيضاً الى (السليك بن السلكة) أحد غرابيب العرب[4] .

وله قصيدة ذكر فيها أنه التقى بالغول ، وصار جاراً للغيلان ، وقد وصف حاله معها ، حيث قال :

وأدهم قد جبت جلبابَهُ ... كما اجتابت الكاعبُ الخيعلا
الى أن حدا الصبحُ أثناءهُ ... ومزق جلبابه الأليلا
على شيم نارٍ تنورتها ... فبت لها مدبراً مقبلا
فأصبحت والغولَ لي جارة ... فيا جارتا أنتِ ما أهولا
وطالبتُها بعضها فالتوت ... بوجه تهول فاستهولا

وهي قصيدة ذكرها (ابن قتيبة) ، وقد اكتفيت منها بالأبيات المتقدمة[5] .
وقد عمل (ابن جني) ديوان (تأبط شراً)[6] ، ونشرت بعض أشعاره وترجمت بلغات أعجمية[7] .

---

١ الحماسة ، لابي تمام (١/٤٦ وما بعدها) ، (بولاق) ، كارلو نالينو ، تاريخ الآداب العربية (٧٣) ، (اذا خاص) ، (اذا خاط) ، الحيوان (٦/٤٦٧) .
٢ كارلو نالينو ، (٧٣) .
٣ الحيوان (٦/٢٥٥) ، وتجد اختلافا بين نص الجاحظ لها ، وبين نصها في الموارد الاخرى .
٤ الحماسة (١/٢٢) ، القالي ، أمالي (٢/١٣٨) ، التيجان (٢٤٢) ، زهر الاداب (٢/١٨) ، الصناعتين (٢٧٩ ، ٣١٠) ، ثمار القلوب (٢٠٤) ، الحيوان (٦/٢٥٦) .
٥ الشعر والشعراء (١/٢٣٠ وما بعدها) . اعجاز القرآن ، للباقلاني (٢٢) ، مروج الذهب (٢/١٣٤ وما بعدها) ، (ذكر أقاويل العرب في الغيلان والتغول) .
٦ بروكلمن (١/١٠٤ وما بعدها) .
٧ Ch. Lyell; Four Poems by T. Sh. the Poet, brigand, JRAS, 1918, 211-227.

وأما (السليك بن السلكة) ، فهو من تميم . وأمه أمة سوداء ، وكان يغير على القبائل ، ولا سيما القبـائل اليمانية وقبائل ربيعة . وكان من العارفين باقتفاء الأثر . ومن العالمين بالمسالك وبالطرق وبالأرض . يذكرون أنه كان اذا جاء الشتاء استودع بيض النعام ماء السماء ثم دفنه ، فإذا كان الصيف ، وأغار واحتاج الى الماء ، جاء الى مواضع البيض ، فاستخرج البيض منها وشرب ما فيه من ماء[1] .

وقد نسب (سليك) على هذا النحو : « سليك بن يثربي بن سنان بن عمير ابن الحرث ، وهو مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن سلكة ، وهي أمه . ولذا قيل : (ابن السلكه) وقيل اسم والده : (عمرو بن يثربي) ، ويقال (عمير) ، وهو شاعر لص فتاك عدّاء . يقال : «أعدى من سليك » ، ويقال له : (سليك المقانب) . قال قرّان الأسدي ، وقيـل أنس ابن مدرك :

لَتَخْطُبُ ليلى يالَ برثن منكم على الهول ، أمضى من سليك المقانب[2]

وقال أهل الأخبار عنه ، انه أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم ورجيلاتهم ، وكان له بأس ونجدة . وكان أدل الناس بالأرض وأجودهم عدواً على رجليه ، وكان لا تعلق به الخيل . وتذكر قصة انه خرج رجاء أن يصيب غرة من بعض من يمر عليه ، فيذهب بإبله ، وبينما هو نائم ، واذا برجل يجثم عليه ، ويقول له : استأسر ، فتمكن منه السليك ، ووجده صعلوكاً فقيراً جاء مثله لعله يصيب شيئاً ، فاتفق معه على أن يغزوا معاً ، فلـما سارا وجدا رجـلاً صعلوكاً انضم اليهما ، واتفقوا على الغزو ، ولما كانوا في جوف (مـراد) ، وجدوا نعماً ، فطلب (سليك) من رفيقيه الانتظار والتربص ريثما يذهب الى الرعاء فيلهيهما ، ثم يغيرا على النعم . فلما وصل الى الرعاء ، تودد اليهم ، ثم قال لهم : ألا أغنيكم ؟ قالوا : بلى ، فأخذ يغني :

---

١ زيدان ، تأريخ آداب (١٦٣/١) ، الاغـاني (١٣٣/١٨) ، الشعر والشعراء (٢١٣) .

٢ اللسان (٤٤٣/١٠) ، (سلك) ، تاج العروس (١٤٤/٧) ، (سلك) ، (السليك ابن سنان بن سلكة) ، تحفة الابيه فيمن نسب الى غير أبيه (١٠٥ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الاولى) .

يا صاحبيّ ألا لا حيّ بالوادي   إلا عبيد وآم بين أذواد
أتنظرانِ قليلاً ريث غفلتهم   أم تعدوان فإن الريح للعادي

فلما سمعا ذلك أطردا الإبل فذهبا بها[1] .

وذكر ان (بكر بن وائل) سارت للإغارة على (تميم) . ورأته طلائعها، فأرادت القبض عليه ، حتى لا يذهب اليهم فيخبرهم بزحفهم عليهم . ولكنه ركض مسرعاً ، فغلت منهم ، وأخبر قومه بغزوهم ، فكذبوه . فقال في ذلك شعراً ، وجاءت (بكر بن وائل) فأغارت عليهم[2] .

وقد وصفه (عمرو بن معدي كرب) في شعر منه :

وسيري حتى قال في القوم قائل: عليك أبا ثورٍ سُلَيْكَ المقانب[3]

ومرّ (سليك) في بعض غزواته ببيت من (خثعم) ، أهله خلوف ، فرأى فيهم امرأة بضة شابة ، فتسنّمها ومضى ، فأخبرت القوم ، فركب (أنس بن مدرك الخثعمي) في أثره فقتله ، وطولب بديته ، فقال : واللهِ لا أديه ابنَ إفال ، وقال :

إني وقتلي سليكا يوم أعقله   كالثور يضرب لما عافت البقر
غضبتُ للمرء إذْ نيكت حليلته   وإذ يشدُّ على وجعائها الثغر[4]

وقد ورد البيتان على هذه الصورة :

إني وقتلي سليكاً ثم أعقله   كالثور يضرب لما عافت البقرُ
أنفت للمرءِ إذ نيكت حليلته   وأن يشد على وجعائها الثغر[5]

ومن بقية الشعراء الصعاليك ، (حاجز) الأسدي ، و(قيس بن الحدادية)

---

١ الشعر والشعراء (١/٢٨٢ وما بعدها) ، (الثقافة) ، الاغاني (١٨/١٣٤) .
٢ الشعر والشعراء (١/٢٨٤) ، (الثقافة) ، الخزانة (٢/١٧) ، (بولاق) .
٣ الشعر والشعراء (١/٢٨٤) ، (الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١/٢٨٥) ، (الثقافة) أسماء المغتالين (٢٢٠ ، ٢٢٦ وما بعدها) ، الاغاني (١٨/١٣٣) ، المؤتلف (١٣٧) ، الخزانة (٢/١٧) .
٥ الحيوان (١/١٨) .

الأزدي ، و(أبو الطمحان) القيني ، (وأبو[3] خراش) الهذلي ، وصخر الغي الهذلي[1] ، وأخوه الأعلم الهذلي[2] ، وعمرو ذو الكلب [3] .

فأما (قيس بن الحدادية) ، فهو (قيس بن منقذ بن عبيد بن أصرم بن ضاطر بن حُبشية بن سلول) ، وله مع (عامر بن الظرب) حديث . وصفه (المرزباني) بـ « شاعر قديم كثير الشعر »[4] . وأمه من (بني حُداد) كنانة ، وقوم يجعلونها من حداد محارب . وكان صعلوكاً خليعاً[5] ، ساهم مع جماعة من أهله في قتل رجل من قبيلتهم ، وعجز قومه من دفع ديته، فولوا هاربين ، فنزلوا في (فراس بن غنم) ثم لم يلبثوا أن قتلوا منهم رجلاً ، فهربوا ، فنزلوا على (أسد بن كرز) من (بجيلة) ، فأحسن اليهم وتحمل عنهم ما أصابوا في خزاعة وفي فراس[6] . وقد نسب (قيس) الى أمه الحُدادية ، وهي حضرمية من محارب[7] . وورد ان أمه من (محارب بن خصفة) . و (حداد) من كنانة . ومن شعره :

أنا الذي أطرده مواليه ٭ وكلهم بعد الصفاء قاليه[8]

ولا نجد في بطون الكتب شعراً كثيراً لقيس بن الحدادية ، بحيث تنطبق عليه جملة (كثير الشعر) التي أطلقها (المرزباني) على شعر هذا الشاعر ، مما يبعث على الاحتمال بضياعه منذ عهد طويل .

وألف (قيس بن الحدادية) ، عصابة ضمت « شذاذاً من العرب وفتاكاً

---

١ شرح أشعار الهذليين (١/١٢) ، الاغاني (٢٠/١٩) ، الشعر والشعراء (٢/٥٥٩) ، ديوان الهذليين (٢/٥٧) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٥٥٩) .
٣ الاغاني (٢٠/١٩) .
٤ زيدان ، تاريخ آداب (١/١٦٤) .
٥ المرزباني ، معجم (٢٠٢) ، الاغاني (١٣/٦) .
٦ الاغاني (١٣/٢ وما بعدها) ، الشعراء الصعاليك (٩٦ وما بعدها) .
٧ كتاب من نسب الى امه من الشعراء (٨٦ وما بعدها) ، (نوادر المخطوطات ، المجموعة الاولى) .
٨ كتاب من نسب الى أمه من الشعراء (٨٧) ، الاشتقاق (٢٧٧) ، ألقاب الشعراء ، لابن حبيب (١٣٩) .

من قومه ، وأخذ يغير على عشيرته بسبب خلعها له ، وبقي شريداً متمرداً يغزو بصعاليكه ، الى أن قتل صعلوكاً[1] .

وأما (أبو الطمحان) القيني ، فهو (حنظلة بن الشرقي) من بني كنانة بن القين ، وكان فاسقاً ، نازلاً بمكة على الزبير بن عبد المطلب ، وكان ينزل عليه الخلعاء ، وكان نديماً له في الجاهلية . اختلف فيه ، فنهم من قال إنه جاهلي ، ومنهم من قال إنه أدرك الإسلام . وقد زعم بعضهم أنه عاش مائتي سنة ، وأنه ندم على ما اقترفه من الذنوب كالزنا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والسرقة ، ورووا له شعراً تبرأ فيه من الذنوب . ذكر أنه قيل له : ما أدنى ذنوبك؟قال : ليلة الدير ، قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلتُ بديرانية ، فأكلت عندها طفشيلاً بلحم خنزير ، وشربت من خمرها ، وزنيت بها ، وسرقت كساءها ، ومضيت !؟ وكانت له ناقة يقال لها (المرقال) ، وله إبل استقاها قوم نزلوا ضيوفاً عليه وشربوا من ألبانها ثم أخذوها معهم ، فقال في ذلك شعراً منه :

واني لأرجو ملحها في بطونكم   وما بسطت من جلد أشعث أغبر[2]

وذلك أنه جاورهم ، فكان يسقيهم اللبن ؛ فقال أرجو أن تشكروا لي ردّ إبلي ، على ما شربتم من ألبانها ، وما بسطت من جلد أشعث أغبر ، كأنه يقول: كنتم مهازيل فبسط ذلك من جلودكم[3] .

وروي أنه كان من المعمرين ، عاش على حدّ قول بعضهم مائتي سنة . فقال في ذلك :

حنتني حانيات الدهر حتى   كأني خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رآني   ولست مقيداً أني بقيد[4]

---

١ الشعراء الصعاليك (٩٧ وما بعدها) .

٢ الشعر والشعراء (٣٠٤/١ وما بعدها) ، الاصابة (٣٨١/١) ، (رقم ٢٠١١) ، الاغاني (١٢٥/١١) ، الخزانة (٤٢٦/٣) ، المعمرون للسجستاني (٦٢) ، المؤتلف (١٤٩) ، أمالي المرتضى (٢٥٧/١ وما بعدها) .

٣ الحيوان (٤٧٣/٤) .

٤ أمالي المرتضى (٢٥٧/١) .

ونسب (المرتضى) له قوله :

وإني من القوم الذين همُ همُ إذا مات منهم ميت قام صاحبه
نجوم سماء كلما غـاب كوكب بدا كوكبٌ تأوي اليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نَظّم الجزع ثاقبه
وما زال منهم حيث كان مسودٌ تسير المنايا حيث سارت كتائبه[1]

وقد لاقى (أبو الطمحان) مصاعب عديدة ، وكان لا يكاد يجد له مكاناً يستقر فيه ، حتى تقع له حادثة توقعه في مشكلات عويصة وفي شدة ومحنـة ، فكان يتنقل من جار الى جار ، ثم يهم بالعودة الى أهله لولا خوفـه من أداء الدية التي عليه أن يدفعها ، فيحجم عن الذهاب اليهم ، حتى استقر أخيراً في (بني فزارة) في جوار رجل يقال له (مالك بن سعد) أحد (بني شمخ) ، وكان كريماً ، فآواه ، وأعطاه إبلاً لتكون دية جنايته وزاد عليها ، وكان قد لمح له انه يريد العودة الى أهله لولا هذه الدية ، فلما وجد هذا السخاء من مالك، بقي عنده ، وصار أحد عشيرته حتى هلك فيها ، وهو طاعن في السن[2]. فذكره (السجستاني) لذلك في المعمرين ، وأعطاه مائتي سنة من عمر مديد[3] !

ونسب الى (أبـي الطمحان) قوله :

إن الزمان ولا تفنى عجائبه فيه تقطع ألاف وأقران
أمست بنو القين أفراقاً موزّعة كأنهم من بقايا حي لقمان[4]

وله شعر في مدح (مالك بن حمار) الشمخي ، وكان شريفـاً من أشراف العرب قتله (خفاف بن ندمة) السلمي[5] ، يقول فيه :

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٥٧) .
٢ الاغاني (١١/١٣٢ وما بعدها) .
٣ المعمرون (٦٢).
٤ البيان والتبيين (١/١٨٧) .
٥ الاشتقاق (٢/١٧٢) ، البيان والتبيين (٣/٢٣٥) ، وقد اخطأ السيـد عبـد السلام محمد هارون في الجزء الاول من كتاب الحيوان الـذي حققه ، اذ قال : « وهو يمدح مالك بن حماد الشمخي » ، ثم علق عليه برقم (٤) حاشية ، ثم قال في الحاشية : « هو قاتل خفاف بن ندبة » ، (ص ٣٨٠) ، الاغاني (١٣/١٣٤) .

سأمدح مالكاً في كل ركبٍ لقيتهم وأترك كل رذل
فما أنا والبكارة من مخاضٍ عظامٍ جلة سدس وبزل
وقد عرفت كلابُكم ثيابي كأنّي منكم ونسيتُ أهلي
نمتكم من بني شمخٍ زناد لها ما شئت من فرعٍ وأصل[1]

وله أيضاً :

فكم فيهم من سيد وابن سيّد وفيٌّ بعقد الجار حين يفارقه
يكاد الغمامُ الغرّ يزعب إن رأى وجوه بني لأم وينهل بارقه[2]

وله في (بني نمير) قوله :

مهلاً نميرُ فإنكم أسيتم منّا بثغر ثنيّة لم تُستَرِ
سُوداً كأنكم ذنائب خطيطةٍ مُطِرَ البلاد وحيرُها لم يُمطرِ
يحبُون ما بين أجا وبرقة عالجٍ حبو الضباب الى أصول السخبر
وتركتم قصب الشُريف طوامياً تهوى ثنيته كعين الأعور[3]

وله في الإتعاظ والاعتبار بدروس الغابرين ، قوله :

ألا ترى مأرباً ما كان أحصنه وما حواليه من سور وبنيان
ظلّ العبادي يسقي فوق قُلّته ولم يهب ريب دهرٍ حق خوّان
حتّى تناوله من بعد ما هجعوا يرقى إليه على أسبابِ كتّان[4]

ولما في حياة الصعالكة من غرابة وطرافة ومغامرات ، تستلذ لسماعها الآذان ، وضع الوضاعون عليهم أخباراً كثيرة وأشعاراً عديدة ، تجد بعضها تحكي الأيام

---

١ البيان والتبيين (٣/٢٣٥) .
٢ البيان والتبيين (٣/٣٣٧) .
كم فيهم من سيد وابن سيد وفي بعقد الجار ، حين يفارقه
يكاد الغمام الغر يرعد ان رأى وجوه بني لام وينهل بارقه
الحيوان (٣/٩٣) .
٣ الحيوان (٦/١١٣) .
٤ الحيوان (٦/١٥٤) .

التي وضع الوضاعون فيها تلك الأشعار ، من حيث الطعن في الأغنياء ، وتفضيل الفقراء عليهم ، وترجيح الفقير على الغني ، لشعوره بشعور انساني حرم منه الغني الذي لم يكن يفكر إلا بنفسه ، كما ان في كثير من الشعر المصنوع طابـع حياة المغامرات . وهو يختلف نصاً من مؤلف الى مؤلف،مما يدل على تعدد الروايات، وانه أخذ من ألسنة متعددة ، فتعدد بعددها .

الفصل الحادي والستون بعد المئة

شعراء القرى العربية

والقرى العربية في نظر (ابن سلام) خمس هن: مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين[1] . و (القرية) في تفسير علماء العربية المصر الجامع ، وقيل كل مكان اتصلت به الأبنية واتخذ قراراً وتقع على المدن وغيرها[2] . وقد جاءت اللفظة في مواضع عديدة من القرآن. كما وردت فيه : (القريتين) ، بمعنى مكة والطائف[3] ، و (أم القرى) ، بمعنى (مكة)[4] ، و (أهل القرى) ، و (القرى) . ومكة والمدينة والطائف قرى ، أما (اليمامة) ، فمصر جامع ، ضم قرى ، وكذلك البحرين . ولم تدخل (الحيرة) ، أو الأنبار ، في القرى العربية لكونهما خارج حدود جزيرة العرب في عرف العلماء .

وذكر (ابن سلام) ان أشعر أهل القرى الخمس ، أهل قرية (المدينة) ، أي (يثرب) . وقد أخرجت خمسة من الفحول : ثلاثة من الخزرج واثنان من الأوس . فمن الخزرج من (بني النجار) : حسان بن ثابت ، ومن بني سلمة : (كعب بن مالك) ، ومن (بلحارث بن الخزرج) (عبدالله بن رواحة) .

---

١ طبقات (٥٢) .

٢ تاج العروس (١٠/٢٩٠) ، (قرى) .

٣ الزخرف ، الرقم ٤٣ ، الاية ٣١ ، تفسير الطبري (٢٥/٣٩) .

٤ الانعام ، الرقم ٦ ، الاية ٩٢ ، تفسير الطبري (٧/١٨٠) .